

الفصل الثانی

موقف الشاعر

الأندلسی عن المكان



## توطئة

أدرك الإنسان منذ القدم الدور المتميز للمكان وعلاقته بوجوده وأصبح من أهم العوام المؤثرة في حياته وأدى دورا أساسيا تاركا آثاره بالرفض أو القبول<sup>(١)</sup>.

إن المكان من أهم العناصر التي يوجه إليها الإنسان مشاعره سواء أكانت مشاعر ألفة أم مشاعر معادية فهي تخضع للوضع الفكري والنفسي الذي يعاني منه الإنسان، زيادة على ذلك فإن الموقف من المكان متأ من قيمة المكان وما يثيره من أحاسيس ومشاعر في وعى الشعراء بوصفهم أكثر الناس حساسية تجاه البيئة المحيطة بهم.

والموقف من المكان بالنسبة للشاعر يعطى رؤية كاملة عنه وما يخلج في نفسه من أحاسيس وما يعانيه من مشاعر تجاه ذلك المكان واتخذ من الشعر وعاء يسكب فيه تلك المشاعر والأحاسيس المتولدة من المكان حتى أصبح المكان ((ترجمة واقعية صادقة لأحاسيس الشعراء))<sup>(٢)</sup>.

وقد اختلفت مواقف الشاعر تجاه المكان، وهذا الاختلاف ما هو إلا نتيجة رؤية الشاعر للمكان وطبيعة العلاقة بين كل منهما.

هذه الرؤية للمكان يمكن أن تكون رؤية إيجابية متمثلة بالألفة لذلك المكان وقد تكون سلبية متمثلة بالعدائية أو العيش في حالة غربة تجاه مكان ما ، وكل هذه المواقف والرؤى تحدد لنا بشكل واضح موقف الشاعر تجاه المكان.

---

(١) ينظر: مدخل جديد إلى الفلسفة، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، ١٧.

(٢) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام، ٣١.

وقد يتجسد المكان تجاه المكان وساكنيه فألفة بعض الأماكن بالنسبة للشعراء متأتية من ساكنيها فعلى الرغم من عدائية بعض الأماكن إلا أنها تكتسب الألفة من الأشخاص الذين يعيشون فيه والأحداث التي تقع فيها.

والعكس من ذلك فربما يكون المكان ذا طابع جمالي من حيث الشكل إلا أنه يتسم بالعدائية لعدم انسجام الإنسان وتآلفه مع ساكنيه بسبب الظروف الاجتماعية أو النفسية المتمثلة بعدم شعور الإنسان بتحقيق مطامحه وأهدافه. وهذا ما نلمسه بشكل واضح في الأدب بصورة عامة والشعر بصورة خاصة لكونه مرآة عاكسة لمختلف المشاعر النفسية والأفكار لذلك حمله الشعراء موقفهم تجاه الواقع المعاش والبيئة المحيطة بهم.

## المبحث الأول المكان المحب (الأليف)

وهو كل مكان شعرنا فيه بالدفء، والحماية وتفاعلنا معه، وترك بصماته بشكل واضح على ذاتنا بحيث لا يمكن أن تمنحى تلك البصمات لشدة رسوخه وتمكنه في أذهاننا<sup>(١)</sup>.

والأماكن الأليفة يمكن أن نعرفها من خلال التجربة ومن خلالها تتحقق ذاتنا، وبدونها تبقى مضطربين وغرباء<sup>(٢)</sup> فهي ملتقى الأحبة ففيها الألفة والدفء، والعاطفة والحنان والجمال، وهذا المكان قد يكون مدينة أو منزلاً أو روضاً أو بستاناً.. وكل ماله أثر مثقل في نفس الإنسان.

إن المكان الأليف لدى الإنسان (( هو دائماً المكان المحب ووظيفته في الشعر أن يشحن الذاكرة باستمرار بشتى الصور الباعثة على الحياة الإنسانية الدافئة ))<sup>(٣)</sup>.

وفي هذا المكان نلمس علاقة ارتباط بين الذات الإنسانية والمكان، هذه العلاقة الارتباطية بين الساكن والمسكن أشبه بأن تكون علاقة الروح بالجسد لذلك كان له حضور دائم في الوجدان البشري.

---

(١) ينظر: البناء الفني في الرواية العربية في العراق، د. شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٠م، ٩٩، الوصف في الرواية العراقية، عبد الأمير مطر الساعدي (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٠م، ٩٨.

(٢) ينظر: حواريات المكان، إدوارد هال، ترجمة: طاهر عبد مسلم، مجلة الثقافة الأجنبية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ع٤، ٣، ١٩٩٧م، ٣٩.

(٣) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام، ١٢٥.

وزيادة على كون المكان الأليف هو مكان المعيشة المقترن بالدفء والحنان فإن ثمة حماية لهذا المكان من الخارج المعادى وتهديداته ويمنح هذا المكان الحلم والتذكر والسعادة<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من كل هذا فإن أهمية المكان ازدادت في الوقت الحاضر فضلا عن اختلاف رؤية الإنسان وموقفه تجاهه فهو ((ليس الحيز الذى يحتوينا ويوفر الحماية والدفء لنا فحسب وإنما هو ذلك الكائن الذى يحيا فى دواخلنا ويورثنا قساوته وسيولته طبيته وبشاعته))<sup>(٢)</sup>.

وقد استطاع الشاعر الأندلسى أن يتآلف مع المكان الجديد على الرغم من قساوة الظروف بالنسبة إلى العرب ولا سيما فى بداية الفتح وما يحيط بهم من صراع مع الأسبان بلغ ذروته<sup>(٣)</sup> فهذا المكان هو ((فردوس ثر الجمال اكتسب جوا عبقا وظلالا وارقة وجبالا شامخة وأنهارا جارية.. شحذت قرائح الشعراء وأسرت قلوبهم))<sup>(٤)</sup>. وراحوا يستشفون وينعمون فى ذلك المكان بل ووجدوا فيه كل مقومات المكان الأليف على الرغم من بعده عن المشرق.

ومن الأماكن التى ألفها الشاعر الأندلسى هو المكان الحضرى فهذا ابن عبد ربه يصف لنا منية كنتش حيث يقول:

ألمّا على قصر الخليفة فانظرا  
مزوّقة تستودعُ النجمَ سرّها  
هى الزهرةُ البيضاءُ فى الأرض  
يودُ وداداً كلُّ عضوٍ ومفصلٍ  
إلى منية زهراءَ شيدتُ لأزهرا  
فتحسبهُ يصفى إليها لتخبرا  
لها الزهرةُ الحمراءُ فى الجومغفرا  
لمبصرها لو أنّه كان أبصرا

(١) ينظر: جماليات المكان، جاستون باشلر، ٤٥.

(٢) شعرية المكان فى الرواية الجديدة، ٢٩٨-٢٩٩.

(٣) ينظر: ظهر الإسلام، د. أحمد أمين، مكتبة النهضة، القاهرة، ط٢، ١٩٥٩م، ٣/٢٣٠.

(٤) مدخل إلى الأدب الأندلسى، د. يوسف طويل، دار الفكر اللبنانى، بيروت، ٨١.

بناءً إذا ما الليل حلّ قناعه  
تعالى علوًا فاتّ عن كل واصفٍ  
بدا الصبحُ من أعرافه الشم مسفرا  
إذا أكثروا فى وصفه كان أكثرا  
ترى المنية البيضاء فى كل شارِقٍ  
تلبسُ وجه الشمس ثوبًا معصفر<sup>(١)</sup>

فهنا وجه ابن عبد ربه مشاعر الدفاء تجاه ذلك المكان فهو يخاطب صاحبيه أن يعرجا إلى القصر، ليريا هذه المنية التى زينت للأمير فكأنها كوكب الزهرة بين النجوم ترنو إليها الأنظار، فهذا المكان أثر فى نفسية الشاعر مما جعله يضىء عليه هذه الصفات الجميلة.

ويطالعنا محمد بن هشام<sup>(٢)</sup> بعبارات يشبه فيها قصر الزهراء بالجنة حيث يقول:

وكأن الورى بأفنية الزه  
موقف الحشر قد تبدى أو الجند  
راء من كل ملّة وقبيل  
ة قد أزلقت لأهل الدخول<sup>(٣)</sup>

فليس من المصادفة أن يجعل قصر الزهراء جنة بل جاء وفقاً لألفته لذلك المكان فحاول أن يضىء عليه أروع التشبيهات وهى المكان المقدس- أى الجنة وكثيرا ما أثار هذا المكان الجنة- مشاعر الشاعر الأندلسى وأحاسيسه<sup>(٤)</sup>.

ومن الأماكن التى ألفها الشاعر الأندلسى أيضاً أماكن اللهو فقد ألهمت هذه الأماكن الشعراء مشاعر الألفة والشعور بالراحة والاسترخاء وتعد الرياض أحد الأماكن التى لجأ إليها الشاعر فى شرب الخمرة مازجا بين أجواء الخمر وأجواء الطبيعة فهذا عبد الله بن الشمر (٢٣٥هـ) يقول:

(١) ديوان ابن عبد ربه، ٦٨.

(٢) محمد بن هشام بن عبد العزيز بن حمد بن سعيد الخير بن الحكم بن هشام يكنى بأبى بكر كان أديباً مشهوراً بالتقدم فى الأدب. عاش فى أيام عبدالرحمن الناصر. ينظر: جذوة المقتبس، ١٥٦/١، والبقية، ١٨٠/١.

(٣) التشبيهات، ٢٩١.

(٤) ينظر: أثر القرآن الكريم فى الشعر الأندلسى من الفتح حتى نهاية عصر الخلافة، محمد شهاب العانى، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ٢٠٠٢م، ٢٤٠.

بين رياضٍ وبين بُستانٍ  
فيها وغابتُ نُحوسُ كيوانٍ  
مثل الغزالِ المروعِ الرانى  
سكرًا ومن مُقلتيه سُكرانٍ  
لما أتانى به فحيانى<sup>(١)</sup>

يا حَبْذا ليلةَ نعمتُ بها  
فى قُبّةِ أحدقِ السُرورِ بنا  
يكفّ ساقٍ رخص أنامله  
فلى من الكأسِ واستدارتها  
حسبتُ بهرامَ فوقَ راحتِه

فهو يألف ذلك الروض، لأنه يجمع بين جمال الطبيعية والخمرة وراح يتغنى بألف ذلك المكان الذى ضم ساقى الخمر.

ويستأنس محمد بن هشام فى مجلس خمر ضمه مع مجموعة من ندمائه بين الرياض المعطرة فينشد فى وصفه قائلاً:

ترامتُ بالشهبِ فى الآفاقِ  
قد تبدتُ فى البدرِ قبلِ المحاقِ  
فأتتُ كالحبيبِ يومَ التلاقِ  
ساحراتِ الجفونِ والآماقِ  
لجينِ تحدثتُ فى السواقِ  
سنا الدرُّ فى بياضِ التراقي<sup>(٢)</sup>

وندامى كأنهم أنجمُ الليلِ  
وكأنَّ العقارِ فى الكأسِ شمسٌ  
فى رياضِ تعطرتُ وتخلتُ  
نورها لاحتُ بأعينِ حورِ  
وكأنَّ الأوراقِ فيها ثعابينُ  
وكأنَّ الحصباءَ فى رونقِ الماءِ

فهذا المجلس الذى ضم الشاعر وندماءه فى ذلك المكان قد أثار إحساس الشاعر تجاه هذا المكان، ولقائهم فيه بأنه أشبه بيوم التلاقى بين الحبيب والمحبيب فجعل من نورها ساحراً للجفون والأوراق كالثعابين والحصباء كالدر فى لمعانه، وهذه التشبيهات مستمدة من نفسية الشاعر التى تألفت مع ذلك المكان.

(١) عبد الله بن الشمر، شاعر أمير الأندلس (مجموع شعره)، ١٣٦.

(٢) التشبيهات، ٢٩٢.



فالشاعر يتخير وقت هبوب النسيم لشرب الخمرة على أن يكون ذلك بين الرياض الندية، ليمتع نظره بجمال الورود والأزاهير ويشم عبيرها الفواح.

ومن الأماكن المهمة التي ألفها الشاعر الأندلسي هي أماكن المحبوبة، وهذا ما نلمس آثاره في قول ابن هانئ:

هَلْمًا نُحَيِّي الْأَجْرَعَ الْفَرْدَ وَاللَّوَى      وَعُوجًا عَلَى تَلِكِ الرَّسُومِ وَعَرَجًا  
مَوَاطِئُ هَنْدٍ فِي ثَرَى مُتَنَفِّسٍ      تَضْوَعُ مِنْ أُرْدَانِهَا وَتَأْرَجَا  
مَنْعَمَةٌ أَبَدَتْ أَسِيلاً مَنْعَمًا      تَضْرَجُ قَبْلَ الْعَاشِقِينَ وَضَرْجًا<sup>(١)</sup>

فهو يتودد إلى ذلك المكان الذي كان في يوم ما يلتقى فيه مع الحبيب فهذه الرسوم لا تعنى له شيئاً لولا الحبيبة التي تسكنها ولجأ إلى أسلوب المخاطبة (هلم) طالباً من صاحبيه إعادة ذكراه في تلك الديار وإلقاء التحية والسلام على تلك الرملة الطيبة التي شهدت ذات يوم لقاءه مع الحبيبة.

وفي موضع آخر يطالعنا ابن هانئ بقوله:

لَتَغْدُ غَوَادِيهِ بِمَنْعَرَجِ اللَّوَى      مَوَائِحَ رَقْرَاقٍ مِنَ الرَّيِّ مُتَّحَا  
سَقَّتُهُ فَمَجَّتْ صَائِكَ الْمَسْكُ حَفْلًا      تَسْحُ وَأَذْرَتْ لَوْلُو النَّظْمِ نُضْجَا  
فَلَمْ تُبْقِ مِنْ تَلِكِ الْأَرْجَاعِ أَجْرَعًا      وَلَمْ تَبْقِ مِنْ تَلِكِ الْأَبَاطِحِ أَبْطَحَا<sup>(٢)</sup>

فهو يدعو بالسقيا لوادي الأحبة، لأن الإنسان إذا ما ألف مكاناً تمنى له الخير، وهذا الخير متمثل بالغيث الذي يسقى هذه الديار.

ومن الأماكن التي ألفها الشاعر الأندلسي أيضاً ووجد فيها متسعاً يعبر فيها عن

(١) ديوان ابن هانئ، ٣٠٥-٣٠٦، الأجرع: الرملة السهلة الطيبة، عوجا: اعطفا، عرجا: اعدلا واطركا، الأسيل: الخد اللين.

(٢) المصدر نفسه، ٣٤٥، الغوادي، الواحدة غادية، السحابة تنشأ غدوة، مجت: بصقت، الصائك: اللاصق.

أحاسيسه الأماكن الطبيعية فهذا أبو الأجرى الكلابى<sup>(١)</sup> (ت: ١٣٨هـ)  
يقول:

ولقد أرانى من هوائى بمنزلٍ عالٍ ورأسى ذو غدائرٍ أفرعُ  
والعيشُ أغيدُ ساقطُ أفنائه والماءُ أطيبه لنا والمرتعُ<sup>(٢)</sup>

فهذه الأبيات قالها عند نزوله أكناف قرطبة حيث جمال الطبيعة والهواء النقى  
والماء العذب وكل مقومات المكان المحبب والتي انعكست آثارها على ذلك الشاعر  
فتغنى بها وبألفتها وعبر بصورة فنية تتم عن مدى الامتزاج الشعورى بينه وبين  
معالم ذلك المكان.

لقد شغف الشاعر الأندلسى بطبيعة تلك البلاد الفاتنة وأصبحت لديه أماكن  
الأندلس محببة إلى النفس يستنبط منها صوراً موحية بهذه الألفة وهذا ما نجده فى  
قول ابن عبد ربه:

تحفُ به جناتُ دنيا تَعْظفتُ لصائغهِ فى الحلى شاتية عَطلى  
مُطبقةُ الأفنانِ طيبةُ الثرى محملةٌ ما لا تطيقُ له حملاً  
عناقدُها دعمٌ تنوطُ بيئتها وقد أشرقتُ علواً كما أظلمت سُفلا

فجمالية الوصف الذى أضفاه على هذا المكان-الباستان- هى متأية من الأثر  
الذى تركه فى نفس الشاعر فحاول أن يعطيه أجمل الصفات والتشبيهاً بأن ما  
أحيط بذلك المكان هو جنة دنيا طيبة الثرى، واستطاع الشاعر أن ينقل لنا تلك

(١) جعونة بن الصمة الكلابى من قدماء شعراء الأندلس والطارئين عليها وكان فى مرتبة جرير  
والفرزدق، لقب بعنتر الأندلس، ونزل بأكناف قرطبة، ينظر: جذوة المقتبس، ٢٩٣/١، ٣٢١/١،  
المغرب، ١٣١/١.

(٢) جذوة المقتبس، ٢٩٣/١.

(٣) ديوان ابن عبد ربه، ١٣٠-١٣١.

الأحاسيس المعبرة عن ذلك المكان بأسلوب مباشر بعيداً عن التكلف والإغراب.

ويمتلك المصحفي<sup>(١)</sup> (ت: ٣٧٢هـ) الشعور نفسه تجاه الرياض حين وجد فيها ما يعبر عن خلجات نفسه التي شغفت بذلك المكان ولنستمع إلى قوله:

انظر إلى الروض الأريض تخاله      كالوشى نُمِقَ أحسن الترميقِ  
وكأثما السوسان صبّ مدنفاً      لعبت يدها يجيبه المشقوقِ  
يوم الوداع ومزقت أثوابه      جزعاً عليه أيما تمزيقِ  
والنرجس الغضّ الذكى محاجر      تعبت من التسهيد والتأريقِ  
يحكى لنا لون المحبّ بلونه      وإذا تنسّم نكهة المعشوقِ  
وكانَ دائرة الحديقة عندما      جاد الغمام لها برشف الرقيقِ<sup>(٢)</sup>

فقد ابتداء المصحفي هذه الأبيات بفعل الأمر (أنظر) محاولاً رسم صورة مرئية لذلك المكان وهذا الأسلوب لم يأت اعتباطاً وإنما جاء وفقاً لنظرة الشاعر المتفائلة واحتفاله بأجزاء ذلك المكان وحاول أن يبرز القيمة الجمالية للمكان من خلال الأوصاف الجميلة التي تنبئ عن موقفه النفسى تجاهه من جهة وعن رؤيته لواقعه من جهة أخرى فشبّه أوراق السوسن بعاشق قد مزق جيبه يوم فراق الحبيبة، وكان أزهار النرجس عيون قد أتعبها السهر والأرق فهذا الروض يحكى لنا حال المحب قد تغير لونه من البعد. فجاءت هذه التشبيهات لتؤكد مدى الارتباط بين الشاعر وهذا الروض.

(١) أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن عبدالله بن كسيلة القيسى كان لصيق المنزلة من المستنصر بالله قديم الصحبة، برع في الكتابة والشعر، وأجاد فيها، مر بنكبات كثيرة وألقى في المطبق حتى هلك سنة (٣٧٢ هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ١/ ٢٨٩، مطمح الأنفس، ١٤، ورايات المبرزين، ٦٩، المغرب، ٢/ ٢٥٤.

(٢) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي، محمد محمود يونس، مجلة آداب المستنصرية، بغداد، ١٢ع، ١٩٨٥، ١٩٢.

وإلى هذه المعانى ذهب سعيد بن فرج<sup>(١)</sup> بقوله:

للروض حسنٌ فقف عليه      واصرف عنان الهوى إليه  
أما نرى نرجساً نضيراً      يومى إلينا بمقلتيه  
نشر حبيبي على رباهُ      وصُفرتى فوق وجتبيهِ<sup>(٢)</sup>

حيث تتداخل الأمكنة (الروض) مع أوصاف معشوق ابن فرج- الذى لم يصرح به - وقد كان هذا التداخل حاصلًا فى انسجام أوصاف الروض وأوصاف المعشوق، فابن فرج يدرك ما للروض من جمال وسحر ونضارة ويعرف ما يميز به حبيبه عن الآخر فأتى بكل هذا الانسجام والتآلف الذى لا نكاد نحس فرقا بين الإثنين فى الوصف أو المشاعر.

إن هذا الانسجام بين الأوصاف المادية (الروض-الطبيعة) والمعشوق (الشخص-الشاعر) جاء نتيجة الارتباط الذهني الكائن فى نفس ابن فرج ومشاعره بين الاثنين فالطبيعة عند الشاعر الأندلسي كل شيء فى أدبه وفكره ومشاعره والمعشوق حالة نفسية يريد الشاعر أن ينقل تجربته إلى المتلقى بأى شكل كان، ولا ريب أن تكون الطبيعة أو أن يكون الروض هنا حاملاً لأحاسيس الشاعر وعواطفه فالمكان الأليف-بأشكاله صورة نفسية تعكس الألفة والولاء للمكان الذى يعيش فيه الشاعر ومن ثم فهو أحداث وأحاديث يقصه علينا جراء تلك النفسية.

وثمة نوع آخر من الأمكنة التى ألفها الشعراء وهو المكان الدينى فكل شاعر يألف ما يوافق نفسه وهواه، فهذا الشاعر الفقيه عبد الملك السلمى<sup>(٣)</sup> (ت: ٢٣٨هـ)

(١) أبو عثمان سعيد بن محمد بن فرج أخوه أحمد بن فرج صاحب كتاب الحدايق، ينظر: الجذوة، ١/ ٣٥٤، المغرب، ٥٧/٢.

(٢) جذوة المقتبس، ١/ ٣٥٤، البغية، ٢/ ٣٩١.

(٣) أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن عباس بن مرداس السلمى ألف كتاب الواضحة فى الفقه سمع بالأندلس وتفق حتى صار أعلم من بها وقد جمع إلى علم الفقه والحديث اللغة والإعراب والأدب، ينظر: تاريخ علماء الأندلس، ١/ ٤٥٩، الجذوة، ٢/ ٤٤٧، مطمح الأنفس، ٧١، البغية، ٢/ ٤٩١، المغرب، ٢/ ٩٦.

يجد ضالته في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فراح يقول فيها:

لله درُّ عصابة صاحبها  
نحو المدينة تقطعُ الفلوات  
ومهامه قد جُبَّتْها ومفاوز  
مازلتُ أذكرُها بطول حياتي  
حتى أتينا القبرَ قبرَ محمدٍ  
خصَّ الإلهُ محمداً بصلاة  
خيرُ البريةِ والنبي المصطفى  
هادى الورى لطرائقِ الجناتِ  
لما وقفتُ بقبره لسلامه  
جادتُ دموعي واكفَ العبراتِ  
ورأيتُ حُجرته وموضعه الذي  
قد كان يدعو فيه فى الخلواتِ  
مع روضةٍ قد قال فيها إنها  
مشتقةٌ من روضةِ الجناتِ  
وینزلِ الأنصارِ وسطَ قبائهم  
بيتُ الهداية كاشفُ الغمراتِ  
وبطيبة طابوا ونالوا رحمةً  
مغنى الكتاب ومحكم الآياتِ  
وبقبرِ حمزة والصحابة حوله  
فاضتُ دموعُ العين منهُمراتِ  
سقيًا لتلك معاهدًا شاهدتها  
وشهدتها بالخطو واللحظاتِ  
لازلتُ زواراً لقبرِ نبيِّنا  
ومدينة زهراء بالبركات<sup>(١)</sup>

فهو يجد في تلك الديار عبق الماضي السعيد فشدته نحو ذلك المكان شوق غامر وعاطفة جياشة نلمس آثارها من خلال تذكيره لذلك الماضي وبكل جزئياته من قطعه للصحراء والمفارز حتى وصوله إلى قبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ذلك المكان الذي ارتبط به ارتباطاً روحياً ونفسياً فيصف لنا شدة الموقف وعند وقوفه على قبر الرسول وقبور الصحابة فيبدي علامات الحب وتظهر علامته من خلال البكاء، فضلاً عن ذلك فإن الشاعر قد لجأ إلى استخدام كثافة مكانية عالية من خلال هذه الأبيات (حجرته، روضة، منزل الأنصار، قبر الرسول، قبر حمزة

(١) نفع الطيب، ٤٦/١

والصحابة) وكل هذه الأماكن تعكس رؤية الذات الفكرية وعمق الصلة والإحساس الدقيق بتلك الأماكن ثم يلجأ إلى الأسلوب التقليدي لدى الشعراء وهو الدعاء بالسقيا لتلك الديار. وقد اتسمت هذه الأبيات بعاطفة صادقة وأحاسيس مرهفة كان أساسها الخلفية الدينية للشاعر والتعلق والشوق إلى تلك الأماكن، هذه الخلفية الدينية خلقت نوعاً من الألفة بين الشاعر والأماكن المقدسة هذه.

ويبدو أن المكان يصبح مألوفاً بساكنيه الذين يألفهم المرء ويتودد إليهم وعلى العكس من ذلك فإن المكان يصبح غير مألوف ما لم يألف الناس الذين يعيشون فيه فالسجن على الرغم من كونه مكاناً معادياً يصبح مألوفاً لدى محمد بن مسعود البجاني<sup>(١)</sup> (ت: ٤٠٠هـ) لكون ذلك المكان ضم الأمير الشريف الطليق فراح يبارك ذلك المكان ويألفه من خلال قوله:

|                                  |  |
|----------------------------------|--|
| غدوتُ في الحبِّ خدنًا لابن يعقوب | وكنتُ أحسبُ هذا في التكاذيبِ                 |
| رأتُ عداتي تعذبي وما شَعَرْتُ    | أن الذي فعلته ضدَّ تعذبي                     |
| راموا بعادي عن الدنيا لأبا لهمُ  | قد كان غاية آمالي ومرغوبي                    |
| يا ابن الخلائف من مروان واحزني   | على ضياعك يا ابن الصبية الشيبِ               |
| وفيك ما يتسلى العاشقون به        | من حسن خلق ومن ظرفٍ ومن طيبِ                 |
| بلى قد فجعت نفسي لمحتجبِ         | قد كان عن لحظ عيني غير محجوبِ <sup>(٢)</sup> |

فقد تحول السجن في هذه الأبيات إلى مكان يألفه الشاعر ورأى أن الذي في سجنه ليس من التعذيب في شيء، وإنما هو الراحة فعداة الشاعر أرادوا إبعاده عن

(١) أبو عبد الله محمد بن مسعود البجاني أصله من بجانة وسكن قرطبة فنسب إليها، كان كثير الشعر جزل المقاطع، حسن المطالع، جيد الابتداء، لطيف الاختراع، وفد على المنصور بن أبي عامر واتهم بزهرق في دينه فسجنه بالمطبق مع الأمير الطليق توفي بعد (٤٠٠هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ١/١٥١، الذخيرة، ١/١/٥٦٢-٥٦٣، البغية، ١/١٧٠، نفع الطيب، ٣/٣٨٨.

(٢) الذخيرة، ١/١/٥٦٣.

الدنيا وزينتها إلا أنهم يادخالهم الشاعر للسجن قد قربوه من الدنيا وما ذلك إلا لكونه - أى السجن - يضم الأمير.

ونلمح في هذه الأبيات أثرا للقصص القرآنى حيث شبه سجنه بجب يوسف عليه السلام إلا أن الفارق بينهما هو أن البجاني قد أَلَفَ هذا المكان على العكس من مكان يوسف فراح يتغنى بصفات وجمال المكان الذى جمعه مع الأمير فأصبح غاية آماله ومناه.

ويمكن القول أن الأندلس فى أغلب أماكنها أصبحت مكانا للألفة بما ضمته من جمال طبيعى منحت الشعراء ((خيالا جميلا وتشابيه حلوة فكانت الرقة والنعومة ميزة أسفارهم والفضل فى ذلك للأندلس وما لربوعها من تأثير فى نفوسهم حتى كان حبهم لها عبادة))<sup>(١)</sup>. فضلا عن ذلك فإن المجتمع الأندلسى كان يميل إلى التسامح الدينى فلا فرق بين عربى وبربرى زيادة على الاستقرار السياسى والامتزاج الاجتماعى وما واكبه من رخاء فى العيش وكثرة فى الأموال حتى استأنست النفوس وبدأ الشعراء يتغنون بذلك الفردوس وأحسوا تجاهه بألفة وأمان حتى قال البعض فيها:

لله أندلس وما جمعت بها      من كل ما ضمت بها الأهواء  
فكأتماتك الديار كواكب      وكأتماتك البقاع سماء  
وبكل قطر جدول فى جنو      وكعت به الأفياء والأنداء<sup>(٢)</sup>

أى تعلق هذا وأى إعجاب بتلك البلاد فهى جامعة لكل ما ترغب فيه النفوس فهى أشبه بالكواكب الشاخحة فى وسط السماء وفى كل مسافة جدول. إن هذا الإعجاب مرده إلى التلاحم والارتباط الذى انعكس إيجابا فى شعرهم.

(١) أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستاني، دار مارون عبود، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٩هـ، ٧٠.

(٢) نفع الطيب، ١/٢٢٦-٢٢٧.

ومن خلال هذا العرض لأبرز الشواهد الشعرية التي جسدت المكان الأليف وجدنا أن الشاعر الأندلسي قد ألف تلك الربوع والقصور والرياض والأمكنة الدينية والأندلس بصورة عامة أصبحت المكان المحبب لهم واستطاعوا من خلال تلك الأماكن إظهار أحاسيسهم الصادقة تجاهها وألف بعضهم المكان المعادي لألفة أصحابه. ويمكن القول أخيرا إن الشاعر الأندلسي استلهم كل عناصر المكان المحبب ووظفها في شعره حتى خرجت ألفاظهم سهلة وعباراتهم جزلة ومعانيهم واضحة تنم عن التلاحم بين الشاعر والمكان الذي ألفه.

## المبحث الثاني المكان المرفوض (المعادى)

هو المكان الذى أجبرنا على العيش فيه ولا نشعر تجاهه بأى ألفة بل الشعور نحوه بالعداء والكراهية ولعل من أبرز هذه الأماكن هى السجون والمعتقلات<sup>(١)</sup>.

والسجن هو أول الأماكن العدائية فهو ((بؤرة الحصار المكانى بل ويمكن عده نقيضا لباقي الأمكنة إذ يظل معبرا عن حضور الموت والقمع وتسييج الذات ومحاصرتها ماديا، وإذا كانت الأمكنة الأخرى تحاصر الذات معنويا وفكريا بحصار تعيشه هذه الذات على مستوى الوعى، فإن حصار السجن فضلا عن ذلك حصار مادي يعاش فيه على مستوى الجسد كفعالية حيوية وهو تصعيد لمفهوم العقوبة بخلاف الأمكنة الأخرى التى تعد تعبيرا عن حضور الروادع الاجتماعية المتعارف عليها))<sup>(٢)</sup>. وهذا المكان حفز الشعراء وأيقظ ملكاتهم الشعرية، ليعبروا عما يقاسونه من الآلام والمعاناة وهذه المعاناة تضعف وتقوى حسب نفسية كل شاعر ومدى قسوة الظروف التى تمر به داخل السجن لذلك فأشعارهم فى ذلك المكان هى انعكاس نفسى لحالة الشاعر.

وكثيرا ما شكى الشعراء من ذلك المكان وهذه ((الشكوى حاجة نفسية منبعثة من نقص حاجة وإذا كان الطليق من الناس يشكو فحرى بمسلوب الحرية أن

---

(١) ينظر: البناء الفنى فى الرواية العربية فى العراق، ١٢٧، وشعرية المكان فى الرواية الجديدة، ١١١.  
(٢) الفضاء الروائى عند جبرا إبراهيم جبرا، د. إبراهيم جندارى، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ٢٠٠١م، ٢٤٢.

يشكو، ليجد في شكواه متنفسا يخفف من ثقل القيود التي أملت به))<sup>(١)</sup> وشعر السجون والشكوى منه قديم قدم الشعر الجاهلي، فقد دخل العديد من الشعراء إليه فجادت قرائحهم بما يعبر عن تلك المعاناة<sup>(٢)</sup>.

وكان من الطبيعي أن يكون للشعر الأندلسي نصيب وافر من هذا اللون ولا سيما في فترة الفتح (٩٢-٤٢٢هـ) وأرجع الدكتور إحسان عباس بروز هذا اللون من الشعر إلى ((الصراع السياسي واشتراك الشاعر في الحياة السياسية وتقلباتها، وامتزاج السياسة والشعر في شخصية واحدة، واضطراب حبل الأهواء من حال إلى حال، في فترات متقاربة))<sup>(٣)</sup> زيادة على ذلك يمكن أن نرجع بروز هذا اللون من الشعر إلى المؤامرات وسعائيات الحساد والوشاة والتنافس على هبات الأمراء، مما يدفع الحساد إلى الإيقاع بالشعراء وتوغير صدر الحاكم عليهم، والإلقاء بهم في غياهب السجون. فضلا عن الجرائم الدينية والدينيوية التي توجب إدخال مرتكبها السجن.

وشعر السجون يصور لنا ((نفسية الشاعر السجين قلقة حائرة تتأرجح بين تيارات نفسية متضادة فهي مرة ثائرة أبية ومرة خائفة ذليلة))<sup>(٤)</sup>. ومن داخل ذلك المكان بث شعراء الأندلس آلامهم وأحزانهم والتفجع لما أصابهم فهذا هشام ابن عبد العزيز<sup>(٥)</sup> يرسل من سجنه أشعاره المؤثرة إلى جاريته (عاج) حيث يقول لها.

---

(١) شعر السجون في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، هادي مدح زغير (رسالة ماجستير) كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٦م، ١١٧.

(٢) ينظر: أدياء السجون، عبد العزيز الحلفي، دار الكتاب العربي، (د.ت)، ١١.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، د. إحسان عباس، ط ١، ١٩٦٠م، ٧٨.

(٤) شعر السجون والأسر في الأدب العربي (بحث)، د. هادي الحمداني، مجلة كلية الآداب، ع ١٣، ١٩٧٠م، ٥٦٣.

(٥) هشام بن عبد العزيز بن هشام يكنى بأبي خالد، كان وزيرا للأمير محمد بن عبد الرحمن الذي حكم بين ٢٣٨-٢٧٣هـ واستمر في مكانته حتى نكبة الأمير منذر بن محمد وقتله الأمير ٢٧٣هـ لأشياء حقدتها عليه بعد أن سجنه، ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٥٨١، الحلقة، ١/ ١٣٧-١٤٢، تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ٤/ ١٣١.

وبابٍ منيعٍ بالحديدِ مضِيبُ  
ففى ريبِ هذا الدهرِ ما يتعجبُ  
كانى على جمر الغضا أُنقلبُ  
عليه فلاقيت الذى كنت أُرهبُ  
ففى الأرض عنهم مستزاد ومذهبُ  
ونفسى على الأسواء أحلى وأطيبُ  
وما من قضاء الله للمرء مهربُ  
سينهل فى كأسى وشيكاً ويشربُ<sup>(١)</sup>

وإنى عدانى أن أزورك مطيقُ  
فإن تعجبنى يا عاجُ ما أصابنى  
وفى النفس أشياء أبيت بغمها  
تركت رشاد الأمر إذ كنت قادراً  
وكم قائلٍ قال أنجُ ويحك سالماً  
فقلت له إن الفرارَ مذلةٌ  
سأرضى بحكم الله فيما ينوبنى  
فمن يك مسروراً بحالى فإنه

فالشاعر يصف لنا باب السجن (المضيب) بالحديد أى الملبس به ويناجى جاريته، لأنه يجد فى هذه المناجاة ما يخفف من عبء المصيبة الواقعة عليه فى ذلك المكان وهذه المناجاة تعكس لنا معاناة السجين وقسوة ذلك المكان ومنعته، وعلى الرغم من هذا كله، فإن الشاعر ذو همة عالية أبى أن يفر قبل أن يقبض عليه فاستسلم لقضاء الله راضياً بما كتب عليه.

وإلى هذا الأسلوب الشعري لجأ سعيد بن جودي<sup>(٢)</sup> (ت: ٢٨٤هـ) حين قال:

ولا شيء مثل الصبر فى الكرب للحُرِّ  
وأن تأبى باليسر من بعد عُسرٍ  
فأطلقه الرحمن من حلق الأسرِ  
فليس على حربٍ ولكن على غدرٍ  
حمتنى أطراف السردينية السمر

خلى صبراً راحة الحرِّ فى الصبرِ  
فلا تياساً من فرحة بعد ترحة  
فكم من أسيرٍ كان فى القيد موثقاً  
لئن كنت مأخوذاً أسيراً وكنتما  
ولو كنت أخشى بعض ما قد أصابنى

(١) الحلة السراء، ١/ ١٤٠-١٤١.

(٢) أبو عثمان سعيد بن سليمان بن جودي بن أسباط بن إدريس السعدى، يتصل نسه بأسرة تعرف بالرياسة، وكان من أعوان الزعيم سوار بن حمدون، خاض عدة معارك حتى سقط أسيراً، وقيل: قتل سعيد غيلة وغدرا سنة ٢٨٤هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ١/ ٣٥٦، بغية الملتبس، ٢/ ٣٩٣.

فقد علم الفتیان أتى کمیها  
فيا ظاعنا أبلغ سلامی تحية  
وأدّ إلى عرسی السلامَ وقل لها  
بهملك ألقى خالقی يوم موقفی  
وإن لم یکن قبراً فأحسن موطناً  
وفارسها المقدامُ فی ساعةِ الدُعر  
إلى والدى الهائمین لدى ذکری  
علیک تحیاتى إلى موقفِ الحشرِ  
وکرکبک أفضى لى من القتلِ والأسرِ  
من القبرِ للفتیانِ حوصلَةُ النسرِ<sup>(١)</sup>

فالشاعر يفتح نصه بالرمز التقليدى بخليلى، ليحاول من خلاله بث لواعجه ومشاعره وآهاته التى كثرت، فمن نکوص من الخلان والأقارب إلى السجن والأسر إلى القبر والزوال.

ويوفق سعيد بن جودى فى هذه الافتتاحية فيوسع الشكوى ويعرج على ذكر المصائب التى حلت به وهو فى هذه ييغى جانين هما الأول: التوسع فى إسهاب الكلام عن مشاعره وخيبة أمله فهى ناحية شكلية غاية الشاعر منها إبراز ما يمكن إبرازه من تجاربه الشخصية ونقلها إلى المتلقى عبر هذه الوثيقة النفسية-الشعر-والجانب الثانى هو استيعاب تفعيلات الطويل نحو القافية السهلة الشائعة الورد-الراء-ناهيك عن حسنه فى استخدام الطويل فى هذه الشكوى فهو بحر ((يمتاز بالرصانة والجلال فى نغماته وذبذباته المناسبة الهادئة لهذا فهو أصلح البحور لمعالجة الموضوعات الجدية التى أكثر منها العرب))<sup>(٢)</sup>.

والمكان غير خاف عن مشاعر سعيد وألفاظه، فكلمات الأسر شائعة فى النص هنا وهناك، ولا شك أنها حالة نفسية لا تجد بدا من تكرارها كلما سنحت الفرصة للتعبير عن مشاعر الرفض والكره والعداء وربما جاء سعيد بن جودى بالقبر فى

(١) سعيد بن جودى السعدى الألبيرى الأندلسى سيرته ومجموع شعره، تأليف: د.محمد رضوان الداية، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدمشق، ١٩٩٧م، ٨٤-٨٥.

(٢) شرح تحفة الخليل فى العروض والقوافى، د. عبد الحميد راضى، مؤسسة الرسالة، بغداد، ط٢، ١٩٧٥م، ١٠٤.

نهاية الأبيات ظنا منه أنه قد يخفف عنه بلواه وشكواه ولا سيما وأنه متأكد من مصيره لا مفر منه إن أحسن من القبر، ليضم جثمانه هي حواصل النسور، ولا يخفى أن الشاعر الأندلسي ما زال يتابع ذلك التقليد المشرقي الذي يرى أن عادة الفرسان أن يموتوا في المعارك وأن تكون قبورهم بطون النسور.. فالجودي بعد كل هذه المشاكل لا يرى منازعا من إسباغ صفات الفخر والهمة والشجاعة على نفسه، ولا يلبث أن يرضى بمكانه والمصير الذي آل إليه، وأن يعرف به كمكان مذموم فيهجوه ويصب عليه جام غضبه كلما وجد الطريق سانحا والفرصة مواتية له.

إن هذا المكان كان الدافع الأهم في نظم النص والجالب لذلك الألم وتلك الشكوى، كما أنه المستدعى لهذا الفخر والمدح، فعليه-المكان المعادي- يكون الذم والعداء وفيه تنتج مثل هذه القصائد القيمة في المشاعر والدلالات.

إن المكان المعادي-السجن- تعبير عن تجربة ألم عانتها النفس الأسيرة المعذبة فالشعراء ((وفوا حالاتهم النفسية من ضمن وصفهم للسجون والمنافي، وذلك لأن شعر السجون يكون أغلبه وصفا وتصويرا لحالة الشاعر وما يلاقى في ذلك السجن من عناء وألم القيود))<sup>(١)</sup> حيث ينفث الأنفاس والزفرات الملتهبة الناتجة عن وحشة المكان فتتلاشى عنده الآمال ويضيق ما رحب به المكان فينقلب ماضيه السعيد وأيامه الجميلة إلى أشواك تدميه وتحيل ألوان الحياة إلى سواد قاتل وإلى هذه المعاني ذهب الوزير عبد الملك الجزيري<sup>(٢)</sup> (ت: ٣٩٤ هـ) بقوله:

ألوى بعزم تجلدى وتصبرى      نأى الأحبة واعتياد تذكري  
شحطَ المزارُ فلا قرارَ ونافرتُ      عينى الهجوع فلا خيالَ يعترى

(١) شعر الأسر والسجون الأندلسي في عصرى الطوائف والمرابطين، جازم شاحوذ الهيتى (رسالة ماجستير) كلية التربية، جامعة الأنبار، ١٩٩٦م، ٣٨.

(٢) عبد الملك بن إدريس الجزيري يكنى بأبى مروان، كان عالما وأديبا ومعدودا من أكابر البلغاء ومن وزراء الدولة العامرية، وكاتب المنصور بن أبى عامر ثم ولده المظفر عبد الملك، سجنه المظفر وقتله بعد ذلك عام ٣٩٤ هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٤٤٤، مطمح الأنفس، ٣٠، الصلة، ٢/ ٥٢٢.

أزرى بصبري وهو مشدود القوى  
 وألان عودى وهو صلب المكسر  
 وطوى سرورى كله وتلذذى  
 بالعيش طى صحيفة لم تنشر  
 هلا بما ألقى الحبيب توهماً  
 بضمير تذكاري وعين تفكرى  
 عجباً لقلبي يوم راعتنا النوى  
 ودنا وداعك كيف لم يتقطر<sup>(١)</sup>

فهذه الأبيات اتسمت بطابع الشوق والحنين، فقد انهار صبره وتجلده في هذه المصيبة، والذي قضى عليه هو ابتعاده عن الأحبة إلى جانب مصيبتة في السجن، فهذا المكان قد أبعد الزوار وأبعد النوم عن عينيه فهو لا يرى الأحبة حتى في المنام فالسجن قد ألان عوده وطوى سروره وأيامه الخالية السعيدة مع الأحبة مما يدفع إلى توهم لقاء أحبته مسترجعا ذكرياته.

ويبدو أن الوزير قد ضاق ذرعه بالسجن فرسم لنا ذلك المكان وبدلالة موحية إلى قساوة الحياة داخل هذه الأمكنة وشدة معاناته فيها وتأثره الكبير لما لقي فيه فيصف لنا الريح التي تهب في السجن بأنها ريح صرصر عاتية باردة تحمل الشر والبؤس والقساوة حتى أوصلته ورمته تلك الرياح في أحضان العجز والاستسلام فراح يقول:

فى رأس أجرد شاهق على الذرى  
 ما بعده لموحد من معمر  
 ياوى إليه كل أعور ناعق  
 وتهب فيه كل ريح صرصر  
 ويكاد من يرقى إليه مرة  
 فى عمره يشكو انقطاع الأبهري<sup>(٢)</sup>

فهذا المكان المنقطع عن العالم يصوره الشاعر مكانا للغربان الناعقة فكيف يعقل لبشر أن يصل إليه، فضلا عن ذلك فإن هذا الوصف أظهر فيه قساوة المكان ووحشيته.

(١) يتيمة الدهر، للثعالبي، شرح وتحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣ م، ١١٧/٢؛ وينظر: مطمح الأنفس، ٣١-٣٢.  
 (٢) مطمح الأنفس، ٣١.

وينتاب الجزيرى شعور غريب في ذلك المكان حيث أحس بأن الخروج من هذا المكان شيء مستحيل، لذلك لجأ إلى ألفاظ فلسفية ممتزجة بالحكمة فيرى أن العلم أرفع مرتبة يمكن أن يصلها الإنسان فيقول:

واعلم بأن العلم أرفع رتبةً وأجلّ مكتسب وأسنى مفخرٍ

كم من أخ يلقاك منه ظاهر  
واشرح لكل ملمة صدرأ وخذ  
واستصح البر التقى وشاور الفطن  
بإد سلامته وباطنه وري  
بالحزم فى كل الأمور وشمّر  
الذكى تكن ربيع المتجر<sup>(١)</sup>

وهذه الرؤية مردها إلى السجن وما رأى فيه من قساوة وشدة وتقييد للحرية فصاغ هذه الألفاظ والمعانى، لتعبر عن تلك التجربة وما يختلج في صدر الشاعر من مشاعر وأحاسيس.

ويترك المكان المعادي-السجن- أثره في نفسية الجزيرى وبها تجسّد فيه من رهبة ووحشة وعدائية دفعت به إلى أن ينظم أبياتا محاولا فيها إيهام نفسه الحزينة بأن الذى بينه وبين المنصور مجرد جفوة محاولا تخفيف العبء عليه من خلال هذه الأبيات:

قالوا جفأه ثلاثاً ثم غربه  
فليس يرجو لديه حظوة أبدا  
جاروا وما عدلوا فى القول بل  
حكموا على المقادير جهلا لا هدوا رشداً  
وما المهذب إلا من تعرفه  
زمانه مخطئاً طوراً ومعتمداً  
من لم يذق طعم بؤسها وشدتها  
لم يدرك لذة نعماء ولا وجد<sup>(٢)</sup>

(١) يتيمة الدهر، ٢/ ١١٧-١١٨.

(٢) أعتاب الكتاب، ابن الأبار أبو عبدالله محمد (٦٥٨هـ)، تح: د. صالح الأشر، ط١، ١٩٦٦م، ١٩٤

ونلمس في هذه الأبيات طابع الحكمة ولا سيما في البيتين الأخيرين فمن لم يقاس  
ويذوق طعم البؤس لم يعرف طعماً للذة، وهذه كلها أنفاس بثها للتخفيف عن اليأس  
الذي انتابه في ذلك المكان .

ويجن الشاعر وهو في سجنه إلى مواطن اللهو والحرية وهذا الاختلاف في  
المشاعر راجع إلى امتزاج عواطف الخوف بالأمل، واليأس بالرجاء، للخلاص من  
هذا المكان فتكون ثمرتها شعراً تُجسّد فيه صدق العاطفة<sup>(١)</sup>. وهذا ما نلمسه عند  
الشاعر أبي الإصبع حين قال:

روؤدك أيها الشوقُ المذكى      لنار صَبَابَتِي بِالْمَهْرَجَانِ  
لقد أذكرتَ منى غير ناسٍ      وهجّتَ لى الصَّبَابَةِ غَيْرِ وَاِنِ  
أيومَ المهرجانِ أعندراً فحالى      تراها فى البلاءِ كما ترانى  
ولو لم ينثنِ طيفٍ وقيد      لرحتُ وقيد لى قصبَ الرهانِ<sup>(٢)</sup>

فمشاعر الحزن التي انتابته، راح يتذكر من خلالها أيامه السالفة التي كان يلهو  
فيها لكن هيهات لهذه الأيام أن تعود فقد ضم السجن جسده وقيد بالأغلال، ومنع  
من قصد المهرجان وأيام اللهو.

ويصف لنا أبو الإصبع<sup>(٣)</sup> شدة ضيق السجن وظلامه حيث يتساوى فيه الليل  
والنهار فينقل لنا صورة ذلك المكان المؤلمة وما فيها من الأسى والتوجع فيقول:

ليت شعرى كيف البلادُ وكيف الـ      أنس والوحش والسما والماء  
طال عهدى عن كل ذاك وليلى      ونهارى فى مقلّتى سواء

(١) ينظر: شعر السجون في الأندلس في القرنين الثالث والرابع الهجريين (دراسة فنية)، د. نزهة جعفر  
حسن، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، ع١٢، ١٩٩٣م، ١١٤ .

(٢) جذوة المقتبس، ٤٥٦/٢ .

(٣) عيسى بن الحسن كان من شعراء الدولة العامرية وكان ممن باطن عبد الله بن المنصور بن أبى عامر  
فلما ضرب أبوه عنقه سجن أبا الإصبع. ينظر: المغرب، ١/ ٢١٢ .

ليس حظى من البسيطة إلا  
وإذا ما جَنَحْتُ فيه لأنسٍ  
قدر قبيرٍ صبيحة أو مساءً  
أوحَشْتَنِي بأنسها الأغبياء<sup>(١)</sup>

لقد أرهق السجن كاهل الشعراء، فهذا المصحفي كان أشد معاناة ((فبقى سنين في مهوى النكبة وجوى تلك الكربة ينقله المنصور معه في غزواته ويعتقله في أظفار التضييق أو في لهواته، وهو يستعطف ويستميل فلا يتحقق له رجاء ولا تأميل إلى أن تكورت شمس، وقاضت بين أنياب المحن نفسه))<sup>(٢)</sup> فراح ييئث شكواه بأشعار تفيض حزناً من ذلك المكان الذي عانى قسوته وشعر تجاهه بالعداء وكان هذا الإحساس منذ أن سبق به إلى مجلس الوزارة للمحاسبة حيث يقول:

لا تأمنن من الزمان تقلبا  
ولقد أرانى والليوث تخافنى  
حسب الكريم مذلة ونقيصة  
وإذا أتت أعجوبة فاصبر لها  
إنّ الزمان بأهله يتقلبُ  
وأخافنى من بعد ذاك الثعلبُ  
ألا يزال إلى لثيم يطلبُ  
فالدهر يأتى بالذى هو أعجب<sup>(٣)</sup>

فهو يرى أن الزمان متقلب فلا يغير الإنسان بزخرف الرخاء والنعيم، لأن نكبات هذا الدهر نازلة بالإنسان لا محالة، ورامية به في مكان الرذيلة والمآسى. وأخذ المصحفي في نكبته يعزى نفسه، متحلياً بالصبر، متذكراً أيام العز والترف حيث يقول:

صبرتُ على الأيام لما توت  
فوا عجباً للقلب كيف اعترافه  
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى  
والزمت نفسى صبرها فاستمرت  
وللنفس بعد العزّ كيف استذلت  
فإن طمعت تاقت وإلا تسلت

(١) المغرب، ١/٢١٢.

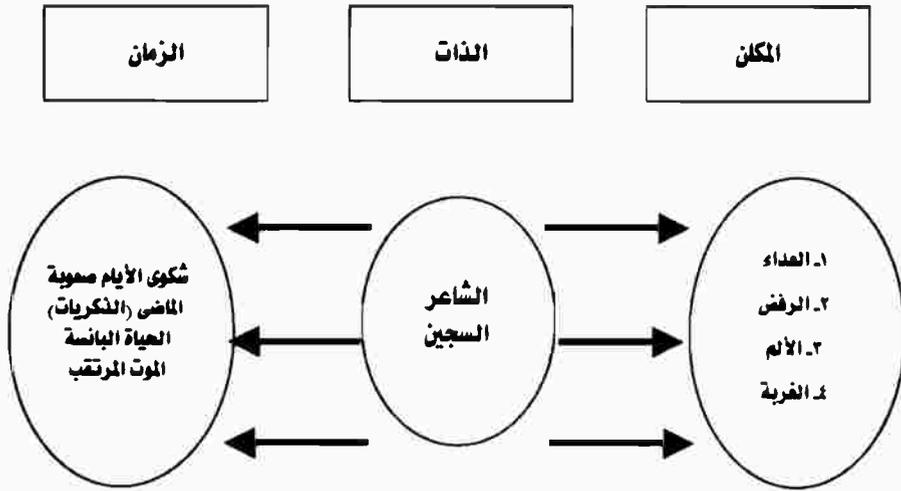
(٢) البيان المغرب، ٢/٢٥٦.

(٣) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي، ١١٧.

وكانت على الأيام نفسى عزيزة      فلما رأَت صبرى على الذل ذلت  
 فقلت لها يا نفس موتى كريمة      فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت<sup>(١)</sup>

فدلة ذلك المكان واضحة ويعترف بتلك الذلة بعد العز والرفاه والذى تمتع به ويعترف بأنه لم يعد يستطيع إلا أن يكون ذليلاً، لأن صبره على الذل المتواصل أذل نفسه وأهانها. واستطاع المصحفى إظهار التلاحم والاندماج بين الزمان والمكان، فالزمان متجسد بالعودة إلى الماضى وتذكر أيام عزه، أما المكان فيتمثل من خلال العدا والرفض الذى فرضه المكان على الشاعر.

والمخطط الآتى يوضح جدلية المكان والزمان على الذات الشاعرة السجينة:



إن السجن مكان مخيف يثير الرهبة فى قلوب نزلائه فيلج هذا النزيل إلى تذكر أيامه السالفة، لعله يجد فيها ما يقلل من رهبة هذا المكان، وهذا الشعور نلمس آثاره فى قول المصحفى:

تأملتُ صروفَ الحادثات فلم أزل      أراها توفى عند موعدها الحرأ  
 فإنى لا أنس لها أبداً ذكراً      فإنى لا أنس لها أبداً ذكراً

(١) المصدر نفسه، ١٨٠.

تجافت بها عتًا الحوادث برهة  
ليالى لم يدر الزمان مكاننا  
وما هذه الأيام إلا سحائبُ  
وأبدت لنا منها الطلاقة والبشرا  
ولا نظرت منا حوادثه شزرا  
على كل أرضٍ تمطر الخيرَ والشرًّا<sup>(١)</sup>

وبدو أن المصحفى قد طال به الأمد في ذلك المكان وتضاعفت عليه الأقدار  
فراح ينظم إلى المنصور بن عامر أبياتا يصف فيها حاله وما وجد من مأساة حيث  
يقول:

عفا الله عنك إلا رحمة  
لئن جِلَّ ذنبٍ ولم أغتمده  
ألم ترَ عبدًا عدا طوره  
ومفسد أمر تلافيته  
أقلننى أقالك من لم يزل  
تجودُ بعفوك إن أبعدا  
فأنت أجلُّ وأعلى يدا  
ومولى عفا ورشيذا هدا  
فعاد فأصلح ما أفسدا  
يقيقك ويصرف عنك الردى<sup>(٢)</sup>

إن عددا من الألفاظ الموحية بالحزن والمعاناة والمأساة قد ترددت في هذه الأبيات  
ومنه (إلا رحمة، عفوك، عبدا عدا، أقلننى) وغيرها من الألفاظ التى تنم عن إحباط  
النفس والإذلال وانعكاس لآلام نفسه المقيدة في ذلك المكان الرهيب.

ويبلغ المصحفى أن قوما قد توجعوا وتفجعوا مما وصل إليه حاله<sup>(٣)</sup> فكتب إليهم  
قائلاً:

أحنُّ إلى أنفاسكم فأظنُّها  
وإنَّ زماناً صرت فيه مقيداً  
بواعث أنفاس الحياة إلى نفسى  
لأثل من رضوى وأضيق من رمس<sup>(٤)</sup>

(١) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفى، ١٨٤.

(٢) المصدر السابق، ١٨١.

(٣) ينظر: مطمح الأنفس، ٢٢.

(٤) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفى، ١٨٦، رضوى: جبل بالمدينة المنورة.

إنها معاناة قد أثنخت جراحها وأصبحت عليه هذه المعاناة كالجبال ثقلاً والقبور ضيقاً، وينفذ صبر المصحفي فيكتب أبياتا إلى المنصور نجد فيها نبرة الجدية في طلب العفو حيث يقول:

هبنى أسأت فأين الفضل والكرم      إذ قادنى نحوك الإذعانُ والندمُ  
يا خير من مُدتّ الأيدى إليه أما      ترثى لشيخ نعاه عندك القلمُ  
بالتّ فى السّخّطِ فاصفح صفح مقتدر      أن الملوّك إذا ما استرحموا رحموا<sup>(١)</sup>

ونجد عبد الله بن عبد العزيز<sup>(٢)</sup> (٣٩٠هـ) أحد من عاش تجربة ذلك المكان وأضناه وضاق به ذرعاً، فقال به أبياتا يستشفع بالحاجب عبد الملك إلى أبيه المنصور بن أبي عامر، ليطلق سراحه قائلاً:

ألا أيها الحاجب المرتجى      وأكرم من كان أو من يكونُ  
دعوتك دعوة مستصرخ      أحاطت به وأثخنه المنونُ  
فإن لم تُعنى فمن ذا الذى      يلوذ به الخائف المستكين<sup>(٣)</sup>

فألفاظ الشاعر المتمثلة (بدعوة مستصرخ، أحاطت به المنون، يلوذ) كلها ألفاظ تنم عن شدة معاناة الشاعر وما يقاسيه داخل السجن فجعلت منه ينفث هذه الألفاظ بعاطفة صادقة ملتبهة بالحرارة

ويرسم لنا الشريف الطليق صورة مرهبة للمطبق<sup>(٤)</sup> الذى ألقى فيه حين قال:

(١) المصدر نفسه، ١٩٦.

(٢) عبد الله بن عبد العزيز القرشي من أولاد احكم الرضى لقب بالحجر، اتهم بالاشتراك مع عبد الله بن محمد بن أبي عامر في مؤامرة ضد أبيه لم تنجح فسجنه المنصور في المطبق، وكان شاعراً وأديباً، توفي (٣٩٠هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ٢/٤١٥، البغية، ٢/٤٤٩، الحلة السرياء، ١/٢١٦.

(٣) الحلة السرياء، ١/٢١٩.

(٤) من سجون الأندلس يقع تحت الأرض في مدينة الزهراء وسمى بيت البراغيث. ينظر: البيان المغرب، ٢/٢٧٠، المقتبس من أبناء أهل الأندلس، ٣٢٥. ينظر: البيان المغرب، ٢/٢٧٠، المقتبس من أبناء أهل الأندلس، ٣٢٥، وينظر: قصر الزهراء في الأندلس، ٥٦.

فى منزلٍ كالليلِ أسودَ فاحمٍ      داجى النواحى مظلم الأثباج  
يسودُ والزهراء تشرق حوله      كالحبرِ أودعَ فى دواة العاج<sup>(١)</sup>

فهنا يركز الشاعر فى رسم هذا المكان على الألوان لا سيما الأسود الذى هو رمز العداة والظلمة والوحشة والتفرد، وهل تصدق هذه الألوان إلا على السجن؟ أو هل يزداد المرء كراهية وحقداً إلا له ولن أدخله بين قضبانه وحديده؟

فالشريف يوسع فى هذه الظلمة وذلك السواد، ولعل الألفاظ فى البيت الأول تكفيهما إذا ما أردنا التعرف على حقيقة ذلك المكان.

منزل - الليل (أسود فاحم)      داجى النواحى + مظلم الأثباج

ولا يكتفى الشريف بكل هذه الألفاظ الدالة على لون واحد هو السواد بل يأتى بالبيت الثانى، ليوسع ذمه لمكانه ويترك فى سواد واحداً جالبا له ما يميزه من حيث إنه المسود وسط إشراق قصر الزهراء (كأنه الحبر أودع فى دواة العاج) ولا يخفى أن التشبيه الحاصل فى الشطر الثانى من البيت الثانى ترجم كل تلك المشاعر. فالشريف رغب أن تكون معناته خاصة بهذا المكان (المطبق) وبدا متحسراً جداً. لأنه وقع فى هذا المكان المحجب (الزهراء) فأراد أن يستثنى هذا الأخير على أن لا يبعد كثيراً عما جال من عداة وذم، وما صرح به من ألفاظ عكست تجربته منذ أول كلمة.

وتساق هذه المعاناة من السجن بألفاظ ودلالات أخرى فى قوله:

أصبحتُ فى الدهرِ كالمعقولِ مختفياً      عن العيون وما تخفى مفاهمه  
كأنما السجراً صدرى فى تضمينه      شخصى وشخصى سرى فهو كاتمه  
كأنما الدهر يخشى منه لى فرجاً      فمن قيودى على البلوى تئاتمه<sup>(٢)</sup>

(١) مع شعراء الأندلس والمنتبى، ٧٨.

(٢) المصدر السابق، ٨٥.

إنها نظرة تأمل لصورف الدهر يبثها الطليق من ذلك المكان، وجاءت هذه الأبيات بعد طول المدة التي مكث بها الطليق حيث اختفى عن العيون، وضافت به القيود، وأصبحت كأنها توائم تحميه من الخروج.

ويعيش محمد بن مسعود البجاني تجربة ذلك المكان المرفوض لا سيما بعد أن فرق بينه وبين الأمير الطليق، فهو القائل:

يا نفس ذوبى عليه هكذا ذوبى  
على لظى الشوق والأحزان تقليبي  
منها الشايب فى إثر الشايب  
فلست تسمع من بعدى بمكروب  
لا يسأمون مع الأيام تثريبى  
دخلته فحسبت الأرض تهوى بى  
قلبى إليك حنين الهيم والنيب<sup>(١)</sup>

ما أقبح الصبر عندى بعد فرقتي  
يا غائباً قد أطالت كف غيبته  
تعجب القطر من عيني حين همت  
عندى استقرت جنود الكرب أجمعها  
سجنٌ وقيدٌ وأعداءٌ منيت بهم  
فى منزل مثل ضيق القبر أوسعه  
يحنُّ عند مقاساة البلاء به

إنه يقبح الصبر بعد فراق الأمير، ويتقلب على جمر الغضى، ويصف حاله بالمأساوى، فمن استقر عنده هم جنود الهم والحزن، فضلاً عن ذلك المكان المرفوض (السجن) وقيد الأعداء وغيرها من المآسى ثم يشبه واسع سجنه بضيق القبور، ورغم مقاساة ذلك المكان، وما يعانيه حاله فإن قلبه مشدود إلى الأمير.

وبعد هذه المعاناة والآلام التي وجدها البجاني أخذ يتوسل إلى المنصور من خلال قوله:

يسمع دعواى المليك الحلیم  
تذهب عنى بالعذاب الأليم  
عنى فدعنسى للقدير الرحيم  
وعنده الفردوس ذات النعيم<sup>(٢)</sup>

دعوتُ لما عيل صبرى فهل  
مولاي مولاي ألا عطفة  
إن كنت أضمرت الذى زخرفوا  
فعنده نزاعة للشوى

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، ٥٦٤/١/١.

(٢) نفع الطيب، ٢٨٩/٣.

إنها نبرة حزن تكشف عن حال الشاعر وما وصل إليه حاله من ضعف وهوان ويجد في القرآن الكريم ما ينهل، ليخاطب المنصور من خلال البيت الرابع، ثم يطلب منه أن يترك حسابه لله فيعاقبه أو يثيبه.

ويصبح السجن لدى الرمادى معاديا لكونه مانعا لطيف الحبية حيث يقول:

هبوا إنَّ سجنى مانعٌ من وصاله  
نعم لم تنم عيني فيطرقَ طيفه  
فدا الصب من لم ينسه في بلائه  
ومن صار سجنى قطعةً من صدوده  
ومن لم يَشُبْ شهداً بسمِّ لطاعم  
ولم تر عيني حاسدين تباينا  
فما الخطبُ أيضاً فى امتناع خياله  
زوالُ منامى علّةٌ لزواله  
وينسى اسمه من كان فى مثل حاله  
وطول اكتئابى شعبةً من ملاله  
إلى أن بدا لى هجره فى دلالة  
عليه سوى قلبى وتُربِ فعالة<sup>(١)</sup>

حيث أصبح المكان السجن - مانعا للنوم- وبالتالي مانعا لطيف الحبيب أن يزوره، وقد عبر عما يجول في خاطره من أبيات لا تخلو من مسحة فلسفية ويبدو ذلك في ألفاظ (الزوال والعلة)

وبعد هذه المعاناة وقسوة السجن ونفاذ الصبر ييث الشاعر أنفاس الحزن والإرهاق ويستسلم للوشاة، ليبلغوا المنى في الشماتة، فهو القائل:

تكتفه همّان: شجوةٌ وصبوةٌ  
فإن يستبنّ فى وجهه همُّ سجنه  
فُبلِّغَ واشيه المنى وعذوله  
فقد غاب فى الأحشاء عنك دخيله<sup>(٢)</sup>

ويتدخل الزمان ليزيد من عدائية المكان ويتحدان معا لزيادة معاناة الشاعر

يقول:

(١) شعر الرمادى، ١٠٨.

(٢) المصدق نفس، ١٠٣.

يعم فلا يألوا حصاراً لعلّه سيودى فيودى بثُّه وأليله  
فلو كان فى هذا الحصار سميّه لأنساه طول السبع فى اليوم طوله<sup>(١)</sup>

فطول النهار فى السجن قد فاق طول السنوات السبع التى أشار إليها القرآن  
الكريم فى سورة يوسف عليه السلام جاعلاً من هذا الوصف تعبيراً عن ضيق  
حاله. ويبدو أن الرمادى قد أسقط ما بيده لديه إلا التوسل والاستعطاف، لإخراجه  
من هذا المكان حيث يقول:

ويا سيدي عبد رجاكم معلولٌ عليكم ولا يجرى سواكم بباله  
وهل يستعينُ المرءُ فى قعر هُوَّةٍ لإخراجه إلا بأقوى حباله  
هل أبصرتموه شافعاً بسواكم وأقبح بعدٍ وهو فى ضيقٍ حاله<sup>(٢)</sup>

فهو يحاول خلق وجدانية بينه وبين من يطلب منه النجاة فيجعله أول من يخطر  
بباله وأقوى حباله التى يستعين بها للخروج من هذا المكان.

ويمر ابن شهيد فى المحنة ذاتها، ويعانى قساوة ذلك المكان، ويبعد عن الأهل  
والأحبة، ويبث أحزانه من خلال قوله:

فراقٌ وسجنٌ واشتياقٌ وذلةٌ وجبارٌ حُفاظٌ على عتيدٍ  
فمن مبلغُ الفتیان أنى بعدهم مُقيمٌ بدارِ الظالمين طريدٌ  
مقيمٌ بدارِ ساكنوها من الأذى قيامٌ على جمرِ الحمام قعودٌ  
ويسمعُ للجنانِ فى جناباتها بسيطٌ كترجيعِ الصدى ونشيدٌ  
وما اهتزَّ بابُ السجنِ إلا تفتّرت قلوبٌ لنا خوفِ الردى وكبُودٌ<sup>(٣)</sup>

فقد اجتمعت على شاعرنا زيادة على شدة سجانیه الغلاظ شدة فراق الأحبة ونار

(١) المصدر نفسه، ١٠٣.

(٢) شعر الرمادى، ١١٠.

(٣) ديوان ابن شهيد الأندلسى، ١٠٠.

الشوق له والسجن وذلته ويريد أن يرسل رسالة لصحبه بأنه مقيم بدار الظلم على  
جمر الموت وقد أحيط بهذا السجن جو الخوف من الموت ورهبته تنظر منها القلوب  
والأكباد.

إن الشاعر السجين كان يعرض واقعه وآلام واقعه فيتفجر غضباً وسخطاً  
ويتحرق أسى ومرارة، لما هو عليه من إهمال وهوان، وابن شهيد يعرض لنا هذه  
المعاناة من خلال قوله:

|                               |  |
|-------------------------------|--|
| وقلتُ لصدّاح الحمام وقد بكى   | على القصيرِ إلفاً والدموع تجودُ              |
| ألا أيّها الباكي على من تحبّه | كِلاناً معنّى بالخلاءِ فريدُ                 |
| وهل أنت دابّ من محبّ نأى به   | عن الإلف سلطاناً عليه شديدُ                  |
| فصفق من ريش الجناحين واقعاً   | على القُرب حتى ما عليه مزيدُ                 |
| وما زال يُبكينى وأبكيه جاهداً | وللشّوقِ من دون الضّلوع وقودُ <sup>(١)</sup> |

هكذا كان موقف الشاعر الأندلسي من السجن إنه موقف عدائي رسم الحزن  
على وجوه أصحابه وترك أثره على نفسيته فمنهم من يبكى على الحياة ومنهم من  
ضاقت به السبل وراح يصرخ ويستعطف دون جدوى ومنهم من راح يصف حاله  
وصفاً دقيقاً ومعبراً عن نفسيته القلقة الحائرة فهو أشبه بكتلة من العواطف  
والانفعالات، من حين إلى آخر فكان متمرداً في أول أيام سجنه متدمراً في أيام  
أخرى وهناك من وصف قساوة المكان وما فيه من وحشة ورهبة، ووصف السجن  
وأبوابه، وهناك من أثار السجن على نفسيته فسلك طريقاً مصطبغاً بالصبغة الدينية  
والرجوع إلى الله تعالى. بل وتحول السجن إلى باعث معاناة قاسية.

(١) ديوان ابن شهيد، ١٠١.

## المبحث الثالث

### الغربة المكانية والحنين في الشعر الأندلسي

كان فتح الأندلس حدثاً تاريخياً عظيماً يستحق أن يرسم له التاريخ أروع الصور والبطولات وكان فتح الأندلس ((أثناء حركة الامتداد الديني والفكري البشرى التى بعثها الإسلام فى عالم القرن السابع الميلادى))<sup>(١)</sup> وكان هذا الحدث فاتحة خير للعرب والمسلمين.

ورافق هذا الفتح عدد لا يستهان به من العرب تركوا بلادهم وساروا نحو الغرب من أجل دافع دينى، إلا أن مشاعر هؤلاء كان لا بد لها أن تتأثر بذلك المكان البعيد عن الأصل (المشرق) فعاشوا هناك بأجسامهم، أما الروح فهى باقية فى المشرق.

ورغم كل هذا استقر العرب فى الأندلس، وحاولوا توطين النفس على اتخاذ الأندلس داراً دائمة، إلا أن هذه المشاعر كانت تتأثر بشدة فى ذلك المكان مردها إلى أن العربى فى بداية الفتح ما زال يتأثر بالقلق والخوف على حياته فهو يعيش فى بيئة محاطة بالأعداء هذا من جهة ومن جهة أخرى طبيعة هذه الجزيرة النائية المختلفة تماماً عن الجزيرة العربية، سواء أكان من حيث المناخ أم من خلال نمط الحياة فيها، فقد وجد العرب خليطاً غير متجانس من البشر، وظلوا ملتفتين بأذهانهم ونفوسهم إلى المشرق يستطلعون أخبارهم، ويطبِقون عاداتهم، وأصولهم العربية، وهذا ما أشار إليه الدكتور أحمد أمين بقوله: ((كانت السنوات الأولى بعد الفتح سنَى دهشة وتحمر، فالبيئة غريبة عن العرب، والمناظر مختلفة عن مناظر

(١) فجر الأندلس، د. حسين مؤنس، طبعة القاهرة، ١٩٥٩م، ٤١٧.

وطنهم، وعادات البلاد وتقاليدها مختلفة عن عادات الصحراء وتقاليدهم، فهم يحتاجون إلى زمن يتأقلمون فيه لمواجهة هذه الحالة الجديدة))<sup>(١)</sup>.

إن تلك الغربية المؤلمة كانت دافعا أساسيا إلى الحنين حين تتشابك المشاعر والأحاسيس التي يصعب الفصل بينها ولا سيما الحنين إلى الديار وساكنيها ويذكر لنا الجاحظ أن العجم قالت ((من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسها تواق))<sup>(٢)</sup> وهذا الاشتياق نجده وبشكل واضح لدى الجليل الفاتح فقد ترك وراءه دولة عربية إسلامية كانت في أوج عزها، لذلك نجد الشعر الأندلسي في بداية الفتح يتسم بطابع مشرقى خالص مرده إلى الأسباب التي ذكرناها.

وهناك أمر آخر لابد من التنبيه عليه وهو خاص بالشعراء ذاتهم فهم ((حين كانوا يغادرون أوطانهم كانوا يغادرونها على كره منهم ومن ثم كانوا يحسون بالانكسار والحزن، ذلك لأنهم كانوا يغادرون أشياء كثيرة غير هذه الأشياء المادية التي كانت تحيط بهم.. فقد تكون هذه الأشياء علاقة حب أو أصواتا يأنس بها في ضوء القمر أو ارتباطا بنخلة تنبت على عينه أو ينسجم كما كان يتألق في السماء كان يتألف في نفسه... المهم إنه كان يغادر هذه الأشياء مهموما محزوناً))<sup>(٣)</sup>. وهذه الأحاسيس والمشاعر الملتهبة من فرقة المكان أبقت ((الشاعر الأندلسي يتمزق قلقا وإحساساً بالغربة وظل شكواه عنيفاً، وبات حنينه كبيراً شامخاً لا تهزه هبات الريح العاتية))<sup>(٤)</sup>.

ونستحضر هذه الغربية المكانية والتي يثيرها الحنين في وجدان الشاعر الأندلسي صوراً بارعة معبرة عن الألم والحرقه والحزن فكان ((الحنين إلى

(١) ظهر الإسلام، ٩٩/٣.

(٢) الحنين إلى الأوطان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٢، ص ٨.

(٣) الغربية المكانية في الشعر العربي، د. عبده بدوي، مجلة عالم الفكر، مج ١٥، ١٥، ١٨٤، وينظر: قضايا حول الشعر، د. عبده بدوي، دار ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٦، ص ٦٣.

(٤) مدخل إلى الأدب الأندلسي، ١٣٥.

المشرق يمثل جانبا كبيرا من أمانى شعراء الأندلس منذ أن استوطن العرب تلك البلاد<sup>(١)</sup>.

وأول من عصفت به رياح الغربة والحنين من شعراء الأندلس هو الأمير عبد الرحمن الداخل (١٧٢هـ) فبعد أن حلت النكبة بالدولة الأموية وفر إلى الأندلس ووجد فيها الملاذ الآمن وأغرق بالترف والنعيم والجاه وغير ذلك إلا أنه لم ينسه ذلك لحظة واحدة ديار الأهل والأحبة في الشرق هذه الغربة وما صاحبها من حنين في نفسية الداخل كان مردها إلى المكان الجديد الذى طرأ عليه من جهة وما آلت إليه الدولة الأموية في المشرق من جهة أخرى.

ويذهب الدكتور الطاهر أحمد مكى إلى تعليل غربة الداخل بأنه ((خلف وراءه خلافة عظيمة انتزعت من بينهم وانتهى به المطاف أميراً على مقاطعة من مقاطعات الخلافة محدودة المساحة والقدرة والمجد صنعها بيده وظلت مجهولة القدر والمصير حتى آخر أيامه فهي لا تعوضه ولا تشبه أمجادهم هناك))<sup>(٢)</sup>.

إذ ظلت المحن والأهوال التى مرت به وتعرض لها أهله وقومه في الشام تحز في نفسه، وتؤلمه فحاول أن ينفس أو يعبر عن معاناته بأبيات شعرية تصور عمق الغربة التى عصفت به فجاءت الأبيات التى يتشوق فيها إلى مَعَاهِدِهِ في الشام خير شاهد على ذلك حين قال:

أيها الراكبُ الميمم أرضى      أقر من بعض السلام لبعض  
إن جسمي كما علمت بأرضٍ      وفؤادي ومالكيه بأرضٍ  
قَدَّرَ البينَ بيننا فافترقنا      وطوى البين عن جفوني غمضٍ

(١) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه د. مصطفى الشكعة، ٢٤٨.

(٢) دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، حرر بعضها وترجم البعض الآخر، د. الطاهر أحمد مكى، دار المعارف، مصر، ط١، ٢٣٧، ١٩٨٠.

قد قضى الله بالفراقِ علينا      فعسى باجتماعنا سوف يقضى<sup>(١)</sup>

هذه الأبيات التي تناقلتها المصادر الأدبية والتاريخية بشكل عام جاءت لتصور  
غربة الشاعر في ذلك المكان وحينه إلى معاهد الشام وديار الأحبة فعندما رأى  
راكبا هاجت عواطفه، وتحركت مشاعره نحو تلك الديار فيطلب منه إلقاء السلام  
على أهله ويظهر تلك المشاعر المتسمة بالتمزق والضياع بأنه يحيا بجسمه في أرض  
الغربة أما قلبه فهناك في ديار المشرق ثم يعزو هذا كله إلى قضاء الله وقدره الذي لا  
مرد له.

ويتسع هذا الإحساس بالغربة لدى الداخل والحنين إلى المشرق عندما يرى نخلة  
من تلك البلاد ولهذا يقول:

تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطَ الرِّصَافَةِ فِخْلَةٌ      تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنِ بَلَدِ النَّخْلِ  
فَقَلْتُ شَبِيهِي فِي الْغَرْبِ وَالنَّوَى      وَطَوَّلَ التَّنَائِي عَنِ بَنِي وَعَنْ أَهْلِ  
نَشَأَتْ بِأَرْضِ أَنْتَ فِيهَا غَرِيبَةٌ      فَمَثَلَكُ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَأَى مِثْلِي  
سَقْتَكُ غَوَادِي الْمَزْنِ مِنْ صَوْبِهَا الَّذِي      يَسَّحُ وَيَسْتَمْرِي السَّمَائِينَ بِالْوَبْلِ<sup>(٢)</sup>

فالنخلة التي انتزعت من موطنها العربي وعاشت في ذلك المكان النائي ذي  
الأجواء الباردة قد أثارت إحساس الداخل بالغربة فهي غريبة كحاله، وراح يعقد  
مشابهة بين حاله في ذلك المكان المغترب عن المشرق وحال تلك النخلة العربية عن  
بلاد النخل، ثم يدعو لها بالسقيا لما رأى تلك المشابهة إنها مناجاة نفس حزينه ألهبتها  
رياح الغربة حيث دارت الأبيات في فلك الانفعالات العاطفية التي يمر بها الداخل  
والتي تركتها ذكريات ديار الأهل والأحبة.

ورغم الغربة التي عصفت به إلا أن الداخل كان همه هو فتح الأندلس لكونه

(١) جذوة المقتبس، ٣٨/١، وينظر: بغية الملتبس، ٣٢/١، نفع الطيب، ٣/٣٩٨، المعجب، ١٥-١٦.  
(٢) البيان المغرب، ٦٠/٢، نفع الطيب، ٥٤/٣.

مكانا بعيدا عن نفوذ العباسيين وانشغال الأخيرين بمشاكلهم الداخلية<sup>(١)</sup>. وعلى الرغم من اهتمامه بشؤون الفتح إلا أنه بعد استقرار الدولة نجد الداخل ترميه الغربة مرة أخرى في بحر الأحزان عند رؤيته للنخلة فيقول:

يا نخل أنت غريبة مثلى      فى الغرب نائية عن الأصل  
فابكى وهل تبكى مكبسةً      عجماء لم تُطبع على خيل  
لو إنها تبكى إذا لبكت      ماء الفُرات ومنبت النخل  
لكنها ذهلت وأذهلنى      بغض بنى العباسى عن أهلى<sup>(٢)</sup>

فهو يخاطب تلك النخلة وكأنها كائن حي يجد فيها مشابة في الحال له فهي نائية عن مكان النخل (المشرق) كما هو ناء عن تلك الديار فتشاركه تلك الغربة والبعد بل ويجعل منها إنسانا تدرك كراهية بنى العباس لبنى أمية وتشاركه هذا الدهول.

لقد أوقعته الغربة في صراع نفسى بين الافتخار بالقوة والزهو بشجاعته وهمته، وبين الشعور بالضعف والحنين الذى يفقد النفس توازنها ويسلمها إلى البكاء ويستعين بتلك النخلة بأسلوب شعري حزين تجد فيه صدق المشاعر والأحاسيس ويحملها جزء من هذه الغربة المؤلمة.

وظل مثل هذا الارتباط بالمكان مرافقاً للشعراء الذين رحلوا إلى الأندلس في تلك الديار-بداية الفتح- وتتردد كثيرا أصداء الماضي في أشعارهم تعبيرا عن الشوق والحنين ومن خلال تسجيلها للإحساس بالوحشة والحزن واللوعة ومن حيث الصور نفسها التى جسدت هذا الإحساس ونقف مع ذكريات حزينة ومؤلمة

(١) ينظر: عبدالرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الداخلية والخارجية، إبراهيم ياس خضير الدورى، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢م، ٤٢.

(٢) الحلة السبراء، ٣٧/١.

وشوق عارم إلى مكان النشأة ومكان الأهل والأحبة لشاعرة الأندلس قمر<sup>(١)</sup> وهى  
تتشوق إلى بغداد وتبعث حسراتها فهى القائلة:

أهّا على بغداد وعراقها      وضياؤها والسحرُ فى أحداقها  
ومجالها عند الفرات بأوجه      تبدو أهلتها على أطوافها  
متبخرات فى النعيم كأنما      خلق الهوى العذرى من أخلاقها  
نفس الفداء لها فأى محاسن      فى الدهر تشرق من سنا إشراقها<sup>(٢)</sup>

إنها تذكرت وتحسرت على بغداد-دار السلام-كحسرتنا عليها اليوم- ذلك  
المكان الذى يذكرها بطفولتها فتشكلت إليه بحنين عميق وإحساس متدفق بالحرارة  
مفدية لها بنفسها.

وتتصاعد الغربة والحنين إلى أماكن الأهل لدى الغزال فيكتب أبياتا يبدوها  
بالشوق العارم لقرطبة ذلك المكان الذى أودعه ذكرياته العميقة وضم أهله وأحبته  
حيث يقول:

كتبتُ وشوقٌ لا يفارقُ مهجتي      ووجدى بكم مستحکم وتذكرى  
بقرطبة قلبى وجسمى ببلدو      نأيتُ بها عن أهل ودى ومعشرى  
سقى الله من مزن السحائب ثرّة      دياركم اللاتى حوت كل جؤذر<sup>(٣)</sup>

ويتداخل حنينه إلى المدينة مع حنينه إلى الحبيبة التى ظلت فى ذكراه وكانت سبباً  
من أسباب غربته فبعده عنها فيه ألم وحزن حيث يقول:

---

(١) من الجوارى الشاعرات التى جلبن من المشرق كانت جميلة الصورة ذكية أدبية راوية حافظة مع فهم  
بارع وفصاحة وبيان كانت تقول الشعر على سجيتها، عاشت فى القرن الثالث الهجرى مع مولاها  
إبراهيم بن حجاج اللخمي صاحب إشبيلية. ينظر: نفح الطيب، ٣/١٤٠. الأدب الأندلسي  
موضوعاته وفنونه، ١٣٠.  
(٢) نفح الطيب، ٣/١٤١.  
(٣) ديوان يحيى الغزال، ٧٥.

أهيمُ بها عشقاً إلى يومٍ محشرٍ  
مُقيماً بقلوبِ الهائمِ المتفطّرِ

بحقّ الهوى أقرّ السّلامَ على التّي  
لئن غبتُ عنها فالهوى غيرُ غائبِ

وكذّر وصلّاً منك غير مُكذّر<sup>(١)</sup>

فوا حزّنى أن فرّق الدهرُ بيننا

إنه حين لا حدود له فترى الألم النفسى يلتهب في أعماق الشاعر بفعل الارتباط بتلك الحبيبة، وعواطف منفعة ألهبتها مشاعر حب الديار ومن سكنها وتواصل هذه العواطف بالبكاء على تلك الديار وأهلها وإقرار السلام عليها فيقول:

وشوقى إلى ريم من الإنسِ أحورٍ  
ويا حاملاً عنى الرسالة كرّر  
وصفّ كل ما يلقي الغربُ وخبرٍ  
سَميئٌ واقراها على آلِ جعفر<sup>(٢)</sup>

بكيْتُ فما أغنى البُكا عند صُحبتى  
سلام سلام ألف ألف مكرر  
ألا يا نسيمَ الرّيح بلّغ سلامنا  
وقل لشعاع الشمس بلّغ تحيتى

فهو يبكى في غربته ولكن هذا البكاء يبقى دون جدوى ويأتى بتكرار لفظتى (سلام سلام) ليؤكد به حنينه ولا يكتفى بذلك بل يكلف الريح سلامه إلى تلك الديار ومحبوته وساكنيتها ويطلب منه أن يصف حاله في تلك الغربة وما آل إليه ويجعل شعاع الشمس يشاركه في إبلاغ السلام والتحية إلى الحبيبة.

وتتمحور هذه المعانى في الشكوى ووجع الفراق وألم البعاد بقصائد أخرى لا تخرج عن سابقتها من حيث الشعور والصحة حيث يقول:

إقرأ السّلامَ على إلفٍ كلّفتُ به      قد رُمتُ صبراً وطولُ الشوقِ لم يرم

(١) ديوان الغزال، ٧٥-٧٦

(٢) المصدر السابق، ٧٦.

ظبى تباعدَ عن قُربى وعن نظرى  
كنا كَرُوحين فى جسمِ غداؤهما  
إلفينِ هذا بهذا مغرمٌ كَلِفَ  
لله تلكَ اللّيالى والسُرُور بها  
ففرّقَ الدهرُ شملاً كان مُلتئماً  
ما زلتُ أرى نجومَ اللّيل طالعةً  
فالنفسُ والهبةُ من شدّةِ الألم  
ماءُ المحبّةِ من هامٍ ومُنسجم  
وواحدٌ فى الهوى منا بمُتّهم  
كأنما أبصرتها العينُ فى الحُلم  
منا وجمَعَ شملاً غيرَ ملتئم  
أرجو السلوَّ بها إذ غبتُ عن نجمي<sup>(١)</sup>

كان وراء تلك الغربية المكانية حنين إلى الأهل والأحبة، فالغزال يجد في هذا الحنين ما يطفئ تلك النار بل ورأى فيها واجبا ووفاء للمحبيب أن يرسل إليه هذه الأبيات، فهو يقرأ السلام عليها وقد أضناه الصبر ويصف لنا نفسه الواهية الملتهبة من الفراق ويحن إلى الماضى بتذكر الأيام الغوالى التى قضاها معها كروحين فى جسد واحد، غداؤها الحب والوفاء أما الليلالى، فيحن لها تلك الليلالى التى قضاها مع الحبيب، ويستعقب الدهر المفرق شملهم والجامع شمله مع آخرين لم يالفهم ويساهر نجوم الليل، ناظرا إليها متسليا معهم، واضعها بمكان حبيته التى غابت عنه.

وبعد هذا فلا يجد سبيلا إلا الشكوى إلى الله بقوله:

أشكو إلى الله ما ألقى لفرقتِهِ  
لو كنتُ أشكو إلى صمِّ الهضابِ إذا  
إن غابَ جسمك عن عيني وعن نظرى  
إئى سَأبكيك ما ناحتُ مُطوّقةً  
شكوى مُحبٍّ سقيمٍ حافظِ الذمم  
تفطّرت لِّلذى أٌبديه من ألم  
فما يغيّبُ عن الأسرار والوهم  
تبكى أليفاً على فرعٍ من النشم<sup>(٢)</sup>

(١) ديوان الغزال، ١٠٤.

(٢) المصدر السابق، ١٠٥.

إنه يقدم في شكواه من غربته تجربة رائعة محكمة برؤيا واعية في بث روح الأسى والتوجع، ويعكس لنا المعاناة النفسية التي ألمت به، ويبدو أن العواطف والانفعالات قد سكنت أحشائه وكانت وراء هذا الإبداع فبعد أن أضنته الغربة بث شكواه إلى الله عله يفرج ما حل به ، هذه الشكوى لو ألقيت على صم الهضاب لتفطرت من شدة ما فيها من أنين وحسرة وراح يخفف هذه الغربة بإقناع نفسه الحزينة بأنه حتى لو غاب الجسم فهو في الخيال، وآلى على نفسه البكاء إليها وإلى ديارها كلما ناحت حمامة، وفاء لهذا الحب.

إن آثار الغربة لا تمحى من الذاكرة وتبقى تحز في نفس الإنسان مشاعر الألم والمعاناة فهذا محمد بن عبد السلام<sup>(١)</sup> (٢٦٨م) يتذكر غربته في المشرق بعد أن عاد إلى الأندلس حيث يقول:

|   |                                |
|---|--------------------------------|
| إذا كان من بعد الفراق تلاقى             | كأن لم يكن بين ولم تك فرقة     |
| ولم تمر كف الشوق ماء ماقى               | كأن لم تُورق بالعراقين مقلتي   |
| بذات اللوى من رامه وُراقٍ               | ولم أزر الأعراب في حُبت أرضهم  |
| بكأس سقا فيها الفراق دهاقٍ              | ولم أصطح بالبيد من قهوة النوى  |
| ودارُ غرورٍ أذنت بفراقٍ                 | أخى إنما الدنيا محلّة فرقة     |
| وتلفت ساقٍ للثُشور بساقٍ <sup>(٢)</sup> | تزوّد أخى من قبل أن تسكن الثرى |

فهو يتذكر غربته المريرة ويقص علينا إرهاصات المكان وتحولاته فقد كانت غربة مرة عاش آلامها ، ويعود به الزمان مرة ثانية، ليخفف من آلام تلك الغربة، وأخذ

(١) أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن الحسن بن كليب الحسنى رحل إلى المشرق ولقى أحمد ابن حنبل وأقام خمسا وعشرين سنة متجولا في طلب الحديث ثم عاد الأندلس، ومات فيها سنة ٢٨٦هـ. ينظر: تاريخ علماء الأندلس، ٢/٦٤٨، الجذوة، ١/١١٨، البغية ١/١٣٧.

(٢) جذوة المقتبس، ١/١١٨، بغية الملتبس، ١/١٣٧.

يلج بعدد من الحكم ضمنها هذه الأبيات لا سيما نظرته إلى الدنيا بأنها دار غربة ودار متاع قليل فلا تركز إليها، واجعل نفسك عابر سبيل، ولجأ الشاعر في البيت الأخير إلى تضمين آية تصور الموقف في يوم النشور.

لقد أصبح الشاعر الأندلسي يعيش في مكان غريب عن طبيعة بلاده الأولى وبين قوم غرباء بعيدين كل البعد عن عاداته وتقاليده فهذا ابن عبد ربه يقول:

الجسْمُ في بلدٍ والروْحُ في بلدٍ يا وحشةَ الرُّوحِ بل يا غربةَ الجسدِ<sup>(١)</sup>

إنه يعيش بذلك المكان النائي بلا روح فهي مستقرة في موطن الأصل معقود بالمكان الذي لا تمضي ذكراه، أما الجسم فهو في هذا المكان الغريب.

والشاعر الأندلسي تبقى ديار الأحبة بالنسبة له قطعة من حياته ينظر إليها ويحس بعمق الغربة التي تمر به فلا يجد شيئاً سوى العودة إلى مناجاة هذه الذكريات فهذا ابن هانيء يقول:

عَهْدِي به والعيشُ مثل جِمامةٍ  
وما تفتأ الحسناء تُهدى خيالها  
وما راعنى إلا ابنُ ورقاءَ هاتفٌ  
وقد أنكرَ الرُّوحَ الذي يَسْتَظِلُّه  
وحتَّ جناحيه ليخطفَ قلبه  
ألا أيُّها الباكي على غيرِ أيكَةِ  
فؤادكَ خفاقٌ ووكرُكَ نازحٌ  
نميرٌ بماءِ الوردِ والمسكِ مقطوبُ  
ومن دُونها إسأدُ خمسٍ وتأويبُ  
بعينه جمرٌ من ضلوعى مَشبُوب  
وسحَّتْ له الأغصانُ وهى أهاضيبُ  
عشاءً سذانيقُ الدُّجى وهو غريبُ  
كلانا فريدٌ بالسَّماوةِ مغلوبُ  
ورَوْضكَ مطلولٌ وبانكَ مهضوبُ<sup>(٢)</sup>

(١) ديوان ابن عبد ربه، ٥٢.

(٢) ديوان ابن هانيء، ٢٢، الجمام: الماء الكثير، النمير، الزاكي من الماء، إسأد: سير الليل، التأويب: سير النهار، السذانيق: الصقر، الغريب: الأسود

فقد ضمن ابن هانئ معانى الحنين لمنزل الحبيب وتذكر أيام الصبا وهناء العيش وطيب الماء ووفرتة، ويحاول أن يخفف آلام غربته بأن حبيته ما زالت تراه ويراها عن طريق الخيال، ثم يعتقد مشابهة بين حاله وحال فرخ الحمام فهو يحترق نارا لفراق أبويه كحال ابن هانئ الذى يحترق لبعده الحبيب، ويصف حال هذا الطائر وما ألم به من فقد البصر فلم يعد يعرف مكانه وراح ينادى صقور الليل ويلقى بنفسه بالتهلكة، لينجو بنفسه من ألم الفراق ثم ينجى ابن هانئ ذلك الطير البائس ويقول له كلانا منفردان بعيدان كل البعد عن مكان الأهل والأحبة.

هذا هو حال الإنسان العربى يخشى فراق الأرض ومصائب الغربة ويحس بالشوق والحنين أينما سار واتجه، ويحن ابن هانئ أيضاً إلى موطن سكناه فهو القائل:

ولى سكن تأتى الحوادثُ دونه      فيبعدُ عن عيني ويقربُ من فكري  
إذا ذكرته النفسُ جاشت لذكره      كما عثرَ الساقى بكأسٍ من الخمرِ  
ولم يُبقِ لى إلا حشاشةً مُغرِم      طوى نفسَ الرُمضاءِ فى خللِ الجمرِ  
وما زلتُ ترمينى اللئالى بنبلها      وأرمى اللئالى بالتجلدُ والصبرِ  
وأحملُ أيامى على ظهرِ عادةٍ      وتحملى منها على مركبٍ وعْرِ<sup>(١)</sup>

إنه يحن إلى مكان سكناه، حيث الحبيبة وكلما ذكرته النفس جاشت لذكره واضطربت كما حصل للساقى بعثرته بكأس الخمر، فلم تبقى الغربة منه إلا بقية من روحه المعذبة بجمر الفراق، ويبتشكواه من الدهر وما جر عليه فهو يعامل أحبته باللطف ويعاملونه بالبعد والفراق، فليس لديه سوى التعبير عما لقي من الجفاء والبعد.

(١) ديوان ابن هانئ، ٢١٤-٢١٥، الرمضاء: شدة الحر

إن النفس البشرية حين تداهمها الغربة وتسكن في أحشائها ويسيطر عليها اليأس  
ويتتابها القلق فما من سبيل إلا التذكر والحنين إلى الماضي فهذا محمد بن أبي عيسى<sup>(١)</sup>  
(٣٣٩هـ) يقول:

ويل أم ذكرى من ورق مُعردة      على قضيب بذات الجزع مَيَّاسِ  
رَدَدَن شَجْوًا شَجَا قَلْبُ الخلى فقل      فى شَجْوِ ذى غربة ناءٍ عن النَّاسِ  
ذَكَرْنَه الزَّمَن الماضى بقرطبة      بين الأَجْبَةِ فى لَهوٍ وإنَّاسِ  
هَجَن الصَّبَابَةَ لولا هِمَّةٌ شَرُفَتْ      فصَيَّرت قلبه كالجندل القاسي  
كم بين آل أبى عيسى وراكبهم      من صَحْن سَهْبٍ وطود شامخٍ راسي  
ومن بحارٍ إذا هاجت بصاحبها      أهدت له الخوفَ محمولاً على الرَّاسِ<sup>(٢)</sup>

فقد أورد الشاعر هذه الأبيات التي تنم عن فجاعة الخطب وشدة الغربة  
وضمنها عددا من الألفاظ الحزينة هي (ويل، شجو، ناء عن الناس، هجن) هذه  
الألفاظ تعكس شدة غربة الشاعر تجعله يتذكر الزمن الماضي بقرطبة حيث اللهو  
والأنس وراح يقرن بين حاله اليوم وحال غربته التي صيرت قلبه كالحجارة القاسية  
ويتساءل كم البعد بينه وبين قومه وما بينهم من جبال وسهول وبحار هائجة؟.

أما ابن شخيص فهو الآخر يحن إلى موقع أنس يجمع بين الظرفاء وأهل الشراب  
يعرف بالركين فيقول على لسان صاحب له غاب عن الركين:

إقِر السلامَ على الركينِ وقل له      مذ غبتَ لم أرتحُ لظل نسيم  
سقيًا لظلكَ بالعشى بالضحى      لبردِ مائكِ فى احتدامِ سمومِ

(١) محمد بن أبى عيسى من بنى يحيى اللبى كان فقيها جليلا عالما موصوفا من أهل الأدب والشعر،  
أورد له أحمد بن فرج الجياني بعض أشعاره توفى سنة ٣٣٩ هـ. ينظر: جدوة المقتبس، ١/١٢٦،  
تاريخ قضاة الأندلس للنباهي، المكتب التجارى للطبع والنشر، بيروت، ٦١-٦٢.  
(٢) جدوة المقتبس، ١/١٢٦.

لو كنتُ أملكُ منعَ مائكَ لم يُقمَ      فى ظلِّ ساجِكَ منتمٍ للثيم<sup>(١)</sup>

وتصل هذه المشاعر إلى عالم الأندلس وفتيها ابن الفرضى<sup>(٢)</sup> (ت: ٤٠١هـ) فيقول فى مقطوعة له معرجا على معانى الفراق وطول الزمان وتباعد المكان والأهل والأخوان:

مُضت لى شهورٌ مذ غبتم ثلاثة      وما خِلتُنَى أبقى إذا غبتم شهراً  
وما لى حياةٌ بعدكم أستلذها      ولو كان هذا لم أكنُ فى الهوى حُرّاً  
ولم يُسلنى طولُ التئانى هواكمُ      بل زادنى شوقاً وجدُّدى ذكراً  
سأستعتب الدهرَ المَفرقَ بيننا      وهل نافعى إن صرّت أستعتب الدهراً  
وتالله ما فارقتكم عن قلى لكم      ولكنها الأقدارُ تجرى كما تُجرى  
رعتكم من الرُحمن بعين بصيرة      ولا كشفتُ أيدي الردى عنكم سترًا<sup>(٣)</sup>

فابن الفرضى يعرف كيف يلج إلى نفس الإنسان ويحاورها ويطرح عليها مشاكلها والمتلقى لنصه الشعري يجد ذلك، فهو من أول الأبيات يركز على ارتباط الزمن وجدليته بالمكان فالفراق يعنى بدء مغادرة المكان ومن ثم الحنين إليه والزمان يعنى زيادة فى ذلك الحنين إيغالا فى مشاعر الغربة وتفعيلا لها فأبيات ابن الفرضى دارت أولاً وآخرا حول الزمن بدليل ذلك (مضت لى شهور) و(ما لى حياة بعدكم) و(الأقدار تجرى) ومع هذا الكم الهائل من ألفاظ الزمان يمكن لنا الكشف عن معانى المكان المعنوية التى رافقت الأبيات وترابطت مع الزمان كما يأتى:

(١) شعر ابن شخيص الأندلس، ٨٥.

(٢) عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى يكنى بأبى الوليد ويعرف بابن الفرضى كان من أهل قرطبة ورحل إلى المشرق سنة ٣٨٢هـ وهو صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس وكان له سعة فى الرواية وحفظ فى الحديث ومعرفة بالرجال وكان بارعا فى الأدب والفصاحة قتل سنة ٤٠١هـ. ينظر: الذخيرة، ١/٢١٤-٦١٦، الصلة ١/٣٩١، بغية الملتبس، ٢/٤٣٣، المغرب، ١/١٠٣.

(٣) تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضى، ١/١٢، وينظر: البغية، ٢/٤٣٥، والصلة، ١/٣٩٥.

(مضت لى شهور) ← المجافة الحقيقية عن المكان لمدة طويلة.

(ومالى حياة) ← السأم والضجر من المكان لمدة طويلة.

(سأستعبت الدهر) ← الغربة والضجر من المكان الجديد.

(والأقدار تجرى) ← غربة مكانية جبرية التى أقام فيها الشاعر رغما عنه.

ومن هذه المشكلة يعلمنا ابن الفرضى صعوبة الحياة فى بلد غير بلده ومعاناة من تجبر الأقدار ويلزمه الزمان على المعاشة فى الموطن الجديد.

إن فراق الأهل والأحبة لأمرٌ فى غاية الصعوبة وكما أشرنا سالفًا تبقى الذكريات هى المعين الأول على هذه الغربة فهذا عبد الوهاب المالكى<sup>(١)</sup> (٤٢٢هـ) يقول:

فدى لك يا بغداد أهلاً ومنزلاً      ولم أرَ فيها مثلَ دجلةَ واديا

ولا مثلَ أهلِها أرقُ شمائلاً      وأعذبَ ألفاظاً وأحلى معانيا<sup>(٢)</sup>

فهو يفدى بغداد بالأهل والمنازل ويحن إلى دجلة وإلى طيب أهلها وحلاوة ألفاظهم ورقة طباعهم وأخلاقهم.

ويتطور أثر الغربة على شاعرنا المالكى فيأخذ يبكاء نفسه حيث يقول:

أنافى الغربة أبكى      ما بكت عينُ غريبو

لم أكن يومَ خروجى      من بلادى بالمصيبو

عجباً لى ولتركى      وطننا فيه حيبى<sup>(٣)</sup>

إنها معاناة نفس غريبة حزينة فهو يبكى فى غربته بكاء شديدا لم تبكه عين

(١) عبد الوهاب بن على بن نصر المالكى البغدادي ولد فى بغداد سنة ٣٦٢هـ وتوفى سنة ٤٢٢هـ.

ينظر: تاريخ بغداد لابن الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربى، بيروت، ١١/٣١-٣١.

(٢) الذخيرة، ٤/٢/٥٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ٤/٢/٥٢٥.

غريب آخر ويخطئ نفسه باتخاذها قرار مغادرة بغداد متعجباً كيف يترك وطناً فيه الحبيب.

إن الشاعر الأندلسي قد وعى حاضره تماماً وهذا الوعي ((لا يمكن إلا أن يكون وعياً إنسانياً بكل ما في كلمة الإنسانية من معنى الامتداد في الزمان والمكان))<sup>(١)</sup> حيث أصبحت الغربة تمزق نفس الشاعر وأصبحت ذاكرته وحينه مأوى لغربته وهذا ما نلمسه في قول أبي عمر الباجي<sup>(٢)</sup> (ت: ٤٣٥):

|                          |                                  |
|--------------------------|----------------------------------|
| سلامٌ على صفات الكرم     | على الغررِ الفارجات الغم         |
| فلا أنسَ ذاك الحيا       | وتلك المعانى وتيك الشيم          |
| ودنياً بكم طلقاً المجتلى | ودهراً بكم واضح المبتسم          |
| وساعات أنس تجول النفوس   | لديها مجال حمام الحرم            |
| أحسن إليكم ومن شاقه      | تذكر عهدكم لم يلم <sup>(٣)</sup> |

فهو غريب في المشرق برح به الشوق فحن إلى الأندلس وتذكر أيامها وساعات أنسها وبهجتها وبقيت هذه الذكريات تخفف بعض الشيء عن غربته.

وعلى الرغم من قساوة الغربة فإننا نجد الشاعر الأندلسي قد عاش في حالة اغتراب أيضاً فهذا الغزال يشعر بالانفصال عن الآخرين والاعتراب عن جيل لا يعرفه، نشأ فيه من غير أوامر تربطهم به حيث يقول:

أصبحتُ والله محسوداً على أملٍ      من الحياة قصير غير مُمتدِّ

(١) تجارب في الأدب والنقد، د. شكري عياد، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ١٩.

(٢) الفقيه أبو عمر يوسف بن جعفر الباجي، جليل القدر، رحل إلى المشرق وحج وولى قضاء حلب ثم عاد إلى الأندلس، توفي ٤٣٥ هـ. ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني (٥٩٧ هـ)، تح: عمر دسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٤م، ٤/٢٢٣٧، المغرب، ٤٠٥/١.

(٣) الخريدة، ٣٣٨/٢، وينظر: المغرب، ٤٠٥/١.

كَأَنِّي بَيْنَهُمْ مِنْ خَشِيَّةٍ وَحَدَى  
إِلَّا حَسِبْتُ فِرَاقِي آخِرَ الْعَهْدِ  
وَأَنْظُرُ إِلَى إِذَا أُدْرِجَتْ فِي اللَّحْدِ  
مَنْ يُشَيِّعُ نَعْشِي مِنْ ذَوِي وَدَى  
يَرْمِي التُّرَابَ وَيَحْثُوهُ عَلَى حَدَى<sup>(١)</sup>

حَتَّى بَقِيْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ فِي خَلْفِهِ  
وَمَا أَفَارِقُ يَوْمًا مِنْ أَفَارِقِهِ  
أَنْظُرُ إِلَى إِذَا أُدْرِجَتْ فِي كَفْنِي  
وَأَقْعُدُ قَلِيلًا وَعَايِنُ مَنْ يُقِيمُ مَعِي  
هَيْهَاتَ كُلَّهُمْ فِي شَأْنِهِ لِعَبِّ

هذه النظرة المتشائمة عن انفصال الشاعر من البيئة التي يعيش بها وعن أناسها ربما كان مرده إلى اختلاف في السلوك أو الآراء أو الأذواق فينظر إليهم نظرة توجس وخيفة من الحسد ويرثي نفسه ويظن بهم ظن السوء عندما يحملون نعشه فلا أحد يهتم له فكلهم لاهون عنه.

ونجد هذه النظرة تجاه الناس لدى مؤمن بن سعيد<sup>(٢)</sup> (ت: ٢٦٧هـ) حيث يقول:

لَسْتُ مِنْ بَابَةِ أَهْلِ الْبَلَدِ  
لِذَوِي الْأَبَابِ أَوْ ذِي حَسَدِ  
يَتَحَامُونَ لِقَاءَ الْأَسَدِ  
وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَحَدِ  
أَحَدٍ يَأْخُذُ مِنْهُمْ بِيَدِي<sup>(٣)</sup>

إِنَّمَا أَزْرِي بِقَدْرِي أَنْنِي  
لَيْسَ مِنْهُمْ غَيْرُ ذِي مَقْلِيَّةِ  
يَتَحَامُونَ لِقَائِي مِثْلَمَا  
طَلَعْتِي أَثْقَلَ فِي أَعْيُنِهِمْ  
لِوَرَأُونِي قَعْرَ بَحْرِ لَمْ يَكُنْ

(١) ديوان الغزال، ٦٤.

(٢) أبو مروان مؤمن بن سعيد بن إبراهيم بن قيس، رحل إلى المشرق فلقى أبا تمام وروى عنه شعره، واتخذ من قرطبة موطنًا له، وكان شاعرا مشهورا وكان فحل شعراء قرطبة، شمت بالوزير هاشم عندما سجن، وبعد خروجه نصب له حبال السعاية عند الأمير محمد حتى ألقى في الحبس وأدى إلى هلاكه في سنة ٢٦٧ هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٥٦٣، المغرب، ١٣٢-١٣٣.

(٣) يتيمة الدهر، ٢/ ٢٤.

إنه يقاسى الاغتراب والانفصال الحاد عن جميع الناس في رسم لنا رؤية الناس تجاهه فيرى أنه ليس منهم وبعيدا عنهم ويرى أنهم يتحاشون لقاءه ولا يطبقونه كما يخشون لقاء الأسد لذا فهو يحس باغتراب عندما يظهر لهم ورؤيتهم له أثقل من الجبال، وهذا نابع من سوء الظن بهم، حتى يرى بأنهم لو رأوه في قاع بحر لما أنقذوه.

ويصرح الرمادى عن اغترابه بشكل مباشر عندما يقول:

اغْتَرَبْنَا أَنْتَ مِنْ بَجَائِنَةٍ      وَأَنَا مَغْتَرَبٌ مِنْ قُرْطَبَةٍ  
 واجتمعنا عند إخوان صفاً      بالسندى أموالهم مُتَهَبَةٌ

لا اجتماع فى اغتراب بيننا      قَبْلَ الْمُغْتَرَبِ الْمُغْتَرِبَةِ<sup>(١)</sup>

فحالته وحال تلك الوردة واحد كون الأول مغتربا عن قرطبة ونزوله فى وادى (أش) أما اغتراب هذه الوردة كونها ظهرت فى غير وقت الورد.

أما ابن دراج فقد ضاقت به بلاد الأندلس وأصبح يذم زمانهم ومكانهم على حد سواء، وما رأى فيها من ضيق العيش وفساد الذوق العام وظلم للرعية واستغلاهم أبشع الاستغلال، حتى حدثت الفجوة بينهم وبين الناس فضاقت به الأرض بما رحبت على غيره وأخذ يصوب نظره تجاه المشرق ولهذا قال

فإن غربت أرض المغارب موئلى      وأنكرنى فيها خليطاً وخلاناً  
 فكم رحبت أرض العراق بمقدمى      وأجزلت البشري على خراسان  
 وإن بلاداً أخرجتنى لعطل      وإن زماناً خان عهدى لخواناً

(١) شعر الرمادى: ٥٣.

سلامٌ على الأخوانِ تسليمَ آيسٍ      وسقيًا لدهرٍ كان لي فيه إخوانُ  
ولا عرّفتُ بي حلةً دارُ خُلّةٍ      عفا رسمها منها جفاءً ونسيانُ<sup>(١)</sup>

فهو يقول عندما ضاقت بي السبل وأنكرني الأصدقاء آليت الذهاب إلى أرض العراق وخراسان فهي تفرح بقدومي فلا مكان لي في الأندلس بعد أن خانني الزمان، وأدرك ابن دراج عظمة الفجوة بينه وبين أهل زمانه فعانى اغترابه القاسي، وجعل منه إنسانا متشائما من هذا المكان.

وعانى ابن شهيد ما عاناه ابن دراج فرأى أن أهل زمانه أصبحوا حسادا له، يكيّدون له ويحاولون الإيقاع به، فعاش في جحيم مظلم من الألم والتشاؤم، ومن الإحساس بالتعاسة والشقاء، ولا نستغرب هذا الشيء لدى ابن شهيد فقد كان إنسانا رقيق المشاعر، مفرط الحساسية، فأحس بالوحشة الخاصة بين أولئك الناس حتى راح يقول:

أرى أعيُنًا ترثونوا إلى كأنمنا      تُساوِرُ منها جانبي أراقمُ  
أدورُ فلا أعتامُ غير مُحاربٍ وأسعى      فلا ألقى امرءًا لي يُسالمُ  
ويجلبُ لي فهمي ضرورًا من الأذى      وأشقى امرئٍ في قرية الجهلِ عالمُ  
وأوجعُ مظلومٍ لقلبي وذى حجي      فتى عربيّ تزدريه أعاجمُ

سَلامٌ عليكم لا تحيةَ شاكر      ولكن شجى تُنسدُّ منه الحلاقمُ<sup>(٢)</sup>

إن اغتراب الشاعر الأندلسي كان مرده إلى ( الثورات والفتن الداخلية وما تركته من مجاعات وأمراض تنهش في الفرد الأندلسي، كل ذلك أدى إلى وجود

(١) ديوان ابن دراج، ٨٩.

(٢) ديوان ابن شهيد، ١٥٣-١٥٤.

حالة من عدم الاستقرار والطمأنينة، تركت أثرا سلبيا في نفسه، فضلا عن ذلك الزمان الذي لا يعطى للنابغة، ولا يقدر للكفاء درجة الرضا لديه، يدفع الوضع والحقير إلى أعلى الدرجات والرتب، ويترك العالم بين الجهلة، فهذا الزمن الذي يشعر فيه الأديب بالظلم ويحس بالضياع، ويندب حظه العاثر الذي جاء به إلى جيل غير جيله، وزمن غير زمنه))<sup>(١)</sup>. فهذا ابن شهيد يعانى من هذه الأحداث جميعا وتعصف به ريح الاغتراب حيث يقول:

هَوَتْ أَنْجُمُ الْعِلْيَاءِ إِلَّا أَقْلَهَا      وَغِبْنَ بِمَا يَحْظَى بِهِ كُلُّ عَاقِلٍ  
وَأَصْبَحْتُ فِي خَلْفٍ إِذَا مَا لِحْتُهُمْ      تَبَيَّنَتْ أَنَّ الْجَهْلَ إِحْدَى الْفَضَائِلِ  
وَمَا طَابَ فِي هَذِي الْبَرِيَّةِ آخِرٌ      إِذَا هُوَ لَمْ يَنْجُذْ بِطَيْبِ الْأَوَائِلِ

وكيف ارتضائي دارة الجهل منزلاً      إذا كانت الجوزاء بعض منازلِي  
وصبري على محض الأذى من أسافل      ومجدي حُسامي والسِّيادة ذابلي<sup>(٢)</sup>

إذن كان للويلات والمآسى التي حلت بالأندلس في تلك الفترة أثرها العميق في حياة ابن شهيد فطبع على نفسه طابع الحزن والكآبة، وضخمت الإحساس بالاغتراب فبعد أن هوى فلك بنى أمية رأى ابن شهيد أن العالم والعاقل أصبح مغبونا لا حيلة له، فلا طيب للعيش في هذا المكان بعد أن حلت الفتنة، ولم يرتض الإقامة والعيش في قرطبة بعدما أصابها الجهل والسفه، وأصبح مغتربا عنها بعيدا كل البعد.

(١) الغربة والحزن في الشعر العربي الأندلسي. أحمد حاجم الربيعي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٣م، ١٣٩.

(٢) ديوان ابن شهيد، ١٤٤.

إن تجربة الانفصال والاغتراب عن الآخرين كانت قاسية جدا لشعراء الأندلس وأصبح (( المجتمع كتلة كثيفة معتمة تحول بين الشاعر والضوء فازداد شعوره بأنه منبوذ، محاصر، مخنوق))<sup>(١)</sup>. هكذا وجدنا الشاعر الأندلسي عانى الغربة وما فيها من مآسى وبعد وحن إلى الديار والأهل، وتجسدت في هذه الأشعار صدق العواطف والأحاسيس المعبرة عن خلجات النفس الحزينة، وعانى الشاعر الأندلسي الاغتراب، وأحس بوجود فجوة عميقة بينه وبين مجتمعه، فكانت المعاناة وكانت ردود الفعل قاسية تجسدت بالتشاؤم والحزن.

---

(١) مقدمة للشعر العربي، أدونيس، على أحمد سعيد، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧١م، ٣٨.